المناظرة بين سيبويه والكسائي
في ضوء علم اللغة الحديث

دكتور / عبد الحكيم حسين عبد الرحمن العسيلي
مدرس بقسم أصول اللغة
بكلية اللغة العربية بأسيوط

تمهيد :-

المناظرة بين سيبويه والكسائي أشهر المناظرات اللغوية ، بل أشهر مناظرات النحاة واللغويين قاطبة ، وقد تناولها كثير من النحاة واللغويين بالبحث والدراسة ، وذكرها كثير من أصحاب التراجم في كتبهم ، في تراجمهم لسيبويه والكسائي والفراء وغيرهم ، ممن شهدوا تلك المناظرة اللغوية ،وتناولها بعض المحدثين بالدراسة والتحليل أذكر منهم الدكتور / علي النجدي ناصف في كتابه : « سيبويه امام النحاة »(١) وقد أجاد الدكتور النجدي في عرض وتصوير أحداثها الفعلية والتاريخية حتى رأينا الأستاذ/ عبد السلام محمد هارون يقول : « وقد أجاد الأستاذ علي النجدي في عرض هذه المناظرة وملابساتها بما لم يدع مقالا لقائل »(٢) .

نعم أجاد الأستاذ/ علي النجدي في عرض تلك المناظرة اللغوية ولكن اجادته لا تمنع مقالا لقائل فيها ، بل لا تمنع مقالات ومقالات في عرض قضاياها على مر الأيام والسنين ، فان مجالات العلوم واسعة

---

(١) سيبويه امام النحاة من ص ١٠٤ : ١١٧ .
(٢) مقدمة الكتاب لسيبويه بقلم الأستاذ / عبد السلام هارون ج ١ / ١٧ .

ونواحى التفكير فى المسائل العلمية تتشعب ، والعلماء تختلف مشاربهم ومداركهم ، ولذلك فهم يختلفون فى عرض وتناول الموضوع الواحد وكل يوم تجد أفكارا وتحدث نظريات ، لم يتوصل اليها السابقون .

نعم كانت شهرة تلك المناظرة سببا فى ترك كثير من العلماء الحديث عنها ، أو تناولها تفصيلا ، يقول الدكتور/ مهدى المخزومى عن الكسائى : « وقصة مناظرته مع سيبويه ، وتآمره مع(٣) جعفر بن يحيى وأخيه الفضل(٤) — على اغتصاب الفوز له — معروفة ، عرفها القدماء وأحاطوا بجميع ظروفها وملابساتها ، ثم سجلوها شعر ونثرا ، فلا أجد هنا ما يدعونى الى اثباتها أو التعليق على موقف الكسائى وتلاميذ من سيبويه ، ذلك الموقف الذى يصور الكسائى فى صورة رجل يعوزه شىء غير قليل من الأمانة العلمية »(٥) .

بل اننا نجد بعض القدماء يترك الحديث عنها — أيضا — لشهرتها فهذا أبو البركات الأنبارى لا يزيد فى الحديث عنها على أن يقول : «وورد سيبويه الى بغداد ، وناظر بها الكسائى وأصحابه ، والمناظرة مشهورة »(٦) .

---

(٣) هو جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى أبو الفضل ، وزير هارون الرشيد الخليفة العباسى ، وأحد مشهورى البرامكة ومقدميهم ، ولد ونشأ فى بغداد ، ولما نقم هارون على البرامكة نقمته المشهورة قتله فى مقدمتهم سنة ١٨٧هـ انظر وفيات الأعيان ١/٢٩٢ ، وتاريخ بغداد ٧/١٥٢ ، والأعلام ٢/١٣٠ .

(٤) هو الفضل بن يحيى بن خالد البرمكى وزير هارون الرشيد ، وأخوه فى الرضاع ، وسجن فى حادثة البرامكة ، وتوفى فى سجنته بالرقة سنة ١٩٣ . وفيات الأعيان ٣/١٩٧ ، والأعلام ٥/١٥٢ .

(٥) مدرسة الكوفة /١٠٢ .

(٦) نزهة الألباء /٧٩ .

كما نلاحظ أن السيرافى لـم يـرو قصة هذه المناظرة فى كتابـه « أخبـار النحويين البصريين » ، بـل لـم يشر اليهـا من قريب أو بعـيد •

يقول الدكتور/ على النجـدى « وهذا لا يعنى — طـبعا أنهـا مشكوك فيها أو غـير صحيحة ، شهرتها واسـعة ، وأنباؤها مستفيضة، والعلم بها متواتر ، ولا أعـرف أحدا نفاها أو شك فيها ، وهيهات أن يجتمع كل أولئك لغير ثابت من الأمر ولا واقـع •

وانما أغفل السيرافى روايتها ، لأنها — فيما أرجح — تعدل بـه عما قصد اليه من الايجاز فى رواية أخبار النحويين ، وفى شهرتها وتحقق العلم بها غناء عن ذكرها وتكرار روايتها »(٧) •

نعم ان هؤلاء العلماء الذين تركوا الحديث عنها لشهرتهـا كانوا بمثابة الدافع الذى جعلنى أتناول هذه المناظرة بالدراسـة والتحليل ، لأن الأمر المشهور بالترك — يفتقد شهرته ، خاصة اذا كثر الذين يتركونه لهـذه الشهرة •

والدافع الثانى مقالة الأستاذ / عبد السلام هارون السابقة ، فهى كانت احدى الدوافع التى جعلتنى أمضى فى معالجة تلك المناظرة ، لكن فى ضوء علم اللغة الحديث ، مسترشدا بما جد فيه من أفكـار وآراء ونظريـات •

فمهما أجاد الدكتور/ على النجدى — فى بحثها ودراستها ، فانى أرى أنه قد فاتته أشـياء لم يتعرض لها بالدراسة والتحليل ، فهو قد ركز على تاريخ ووقائع المناظرة ولاختلاف كتب التراث فى مرويـات

---

(٧) سيبويه امام النحاة /١١٥ •

أحداثها وملابساتها ، ولـــم يناقش ذلـك فى ضـوء علـم اللغـة الحـــديث •

ولم تكن مقالة الأستاذ/ عبد السلام هارون هى الحافز الأول ، بل ان تلك المناظرة كانت تشغل ذهنى ، وتأخذ على ملكة أفكـارى منـذ سنين عدة فقد كنت فى كثير من أوقـاتى تساءلنى نفسى عما حـــدث بين هذين العلمين الشامخين ، حتى ثرت على تلك الأسئلة والخواطـر حولها ، وأخـذت تجول فى نفسى أفكار ، فى الاجابة على تلك الأسئلة والرد عليها ، أردت أن اسجلها فى ذلـك البحث ، حتى يستفاد منهـا ، فلربما تعرض تلك الخواطر لغـيرى فيجد الاجابة عليها •

المناظرة لغـة واصطلاحا

كل من ترجم من العلماء السابقين لسيبويه والكسائى ، وذكـر هذه القصة التى حدثت بينـهما ، يعرفها بالمناظرة فما هو مفهوم المناظرة وهل ما حدث بينهما من قبيل المناظرة او المجادلة ؟

ان من يقرأ مادة (٨) « ن ظ ر » فى المعـاجم اللغوية يجـد أن المناظرة لها مآخذ خمسة ، وهذا بيانها :

١ ــ مأخوذة من النظير بمعنى أن الأمر الذى يتنازعان فى اثباته واحد ، فمثلا العالم هو موضوع النزاع بين الموحد والفلسفى ، فالأول يقول بحدوثه ، والثانى يقول بقدمه ، وفى هذا ايمان الى أنه ينبغى أن يكون المتناظران متماثلين متكافئين أو متقاربين ، فلا يكون أحدهما فى غاية العلو والكمال ، والآخر فى نهاية الدناءة والنقصان •

٢ ــ مأخوذة من النظر بمعنى الابصار ، وفى هذا اشـــارة الى

---

(٨) انظر لسان العرب مادة « ن ظ ر » جـ ٦/٤٤٦٥ ،

أن الأولى حضور المتناظرين فى مجلس واحد ، ينظر كل منهما للآخر ، فلا يصعر خده لصاحبه ، ولا يعرض عنه تكبرا ، ولا يضرب عنه صفحا ، لأن هذه الأخلاق والافعال تسد مأخذ التفكير عليه .

٣ ــ مأخوذة من النظر بمعنى الفكر والالتفات الى المعقولات والتأمل فيها ، وفى هذا اشارة الى أنه ينبغى للمناظر أن لا يسرع الى القول قبل التأمل فان القول بعد التأمل يكون مرتبا منسقا .

٤ ــ مأخوذة من الانتظار ، وفيه اشارة الى أنه يجب أن ينتظر أحد المتخاصمين الى أن يتم الآخر كلامه ، فلا يتكلم فى حالة كلامه .

٥ ــ المناظرة بمعنى المقابلة ، وفيه اشارة الى أنه يحسن أن يجلس كل من الخصمين مقابلا للآخر ، حتى لا يشعر أحدهما باهمال الآخر له(٩) .

والمناظرة فى الاصطلاح : توجه المتخاصمين فى النسبة بين الشيئين اظهارا للصواب(١٠) وهى تخالف المجادلة والمكابرة ، لأنه ليس الغرض منهما اظهار الصواب .

ولكن هل ما دار بين سيبويه والكسائى من قبيل المناظرة ؟

ان من يمعن القراءة فى مرويات تلك المناظرة ، وما جاء حولها من ملابسات وظروف وأحوال ــ يستطيع أن يدرك أن ما حدث بينهما ، وما حدث بين سيبويه وتلاميذ الكسائى خاصة ــ كان من قبيل المجادلة واظهار التفوق العلمى على الآخر ، حتى يكون مقربا من الخلفاء

---

(٩) خلاصة فى أدب البحث والمناظرة ص ٨ .

(١٠) المرجع السابق ص ٨ .

والوزراء ، وذلك لأن الأصل فى مفهوم المناظرة هو تحرى وجه الصواب، واظهاره للطرف الآخر ، أما المجادلة فقد عرفها المناطقة بقولهم : « هى المنازعة لالزام الخصم ، لا لاظهار الصواب فان كان مستدلا كان قصده أن يلزم غيره ، وان كان سائلا كان قصده أن يسلم من الزام الغير له »(١١) .

ألا ترى هذا واضحا فى قول تلاميذ الكسائى كلما أجاب سيبويه بجواب يقولون له : أخطأت يا بصرى وهم — مع ذلك — لم يبينوا وجه الخطأ ولكن آثرت أن يكون عنوان البحث « المناظرة ... الخ » حتى لا ألصق تهمة التجدل بالعالمين الجليلين : سيبويه امام النحاة ، والكسائى من أئمة القراءات السبع فى الكوفة .

وكذلك محافظة على ما عنون به العلماء السابقون قبلى ، حينما ترجموا لسيبويه أو الكسائى ، أو حين درسوا المسائل النحوية التى دارت بينهما — فى كتب النحو .

من تاريخ المناظرات النحوية

كان القرن الثانى الهجرى الذى عاش فيه كل من سيبويه والكسائى — عصر مناظرات ومجادلات علمية فى مختلف العلوم والفنون ، ولم تقتصر على العلوم العربية ، بل كثرت بين مختلف الفرق الاسلامية من خوارج وشيعة ومعتزلة وأهل سنة ، بل كانت هناك مناظرات بين غير المسلمين .

ولم تكن المناظرة بين سيبويه والكسائى الأولى فى تاريخ النحو العربى ، بل سبقتها مناظرات ومناظرات ، وان كانت هى أشهر تلك المناظرات قاطبة .

---

(١١) المرجع السابق /١٠ وما بعدها .

ولقد كانت هناك مناظرات بين النحاة أنفسهم ، وبين النحـــاة والشعراء ، بل كانت بين النحـــاة والفقهاء ، وتـــروى لنا كتب الأدب واللغة من تلك المناظرات وتلك الخصومات مواقف لا تحصى .

فمن المناظرات التى كانت بين النحويين بعضهم البعض — تلك المناظرات التى كانت بين سيبويه والأخفش(١٢) الأكبر أبى الخطاب ، يدلنا على ذلك ما قاله أبو العباس المبرد : « كان الأخفش يناظـره بعد أن برع ، فقال الأخفش : انما ناظرتك لأستفيد ، لا لغيره .

فقال سيبويه : أترانى أشـــك فى هذا ؟ ... (١٣) .

وهذا الذى حدث بين سيبويه والأخفش يعد من قبيل المناظرات العلمية النزيهة التى روعيت فيها أسس وأخلاق المناظرات العلمـــية فهى اعتراف من الأخفش أنها للافادة ، لا لمجرد الجدل والمكابرة .

ومن المناظرات التى كانت بين النحويين والشعراء ما حدث بين عبد الله بن أبى اسحاق الحضرمى (ت ١١٧) هـ — والفرزدق الشاعـــر المشهور ، فقد كان ابن أبى اسحاق يرد على الفرزدق — كثيرا من اعرابه لشعره ، فقال الفرزدق : والله لأهجونك ببيت يكون شاهدا على ألســـنة النحويين الى يوم القيامة فهجاه بقوله :

---

(١٢) هو أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد مولى قيس بن ثعلبة لقى الأعراب وأخذ عنهم وعن أبى عمرو بن العلاء وطبقته ، حتى صار من أكابر علماء العربية ، وهو أول من فسر الشعر بيتا بيتا ، يعقب كل بيت تفسيره ، وأخذ عنه ســـيبويه اللغة ، وهو يذكره فى الـكتاب بكنيته - نزهة الألباء /٥٣ وطبقات الزبيدى /٤٠ .

(١٣) أخبار النحويين /٣٨ .

فلو كان عبد الله مولى هجوته
ولكن عبد الله مولى مواليا(١٤)

ويروى أبو الفرج(١٥) الأصفهاني خصومة مماثلة بين سيبويه(١٦) وبشار الشاعر حين عابه الأول فى بعض ما يقول ، فبلغ ذلك بشارا

---

(١٤) البيت من بحر الطويل والشاهد فيه عند النحاة اجراء «مواليا» على الأصل للضرورة الشعرية فمولى مضاف و « مواليا » مضاف اليه وعبد الله ابن أبى اسحاق حينما نطق بهذا البيت قال للفرزدق : أخطأت أخطأت ، انما هو : «مولى موال » يريد أنه أخطأ فى اجراء كلمة « موال » مجرى الممنوع من الصرف ، اذ جرها بالفتحة ، وكان ينبغى أن يصرفها قياسا على ما نطق به العرب فى مثل : جوار وغواش ، اذ يحذفون الياء فى الجر والرفع • يريد الفرزدق أن عبد الله لو كان دليلا لهجوته ، ولكنه مولى موال ، فهو كان مولى لآل الحضرمى وهم كانوا حلفاء لآل عبد شمس بالولاء •

انظر الكتاب ٣/٣١٣ ، ٣١٥ ، والخصائص ١/٣٦٢ ، ٢/٣٤٧ ، وأخبار النحويين /٢١ ، ووفيات الأعيان ٥/٤٣٥ ، ومراتب النحويين/٣١ والفهرست /٦٢ ، ونزهة الألباء /٤١ ، وبغية الوعاة ٢/٤٢ ، واللسان (ف ل ى) ج ٢/٤٩٢٢ والأشمونى ٣/٢٧٣ ، وديوان الفرزدق /١١ طبعة الصاوى •

(١٥) انظر الأغانى ج ٣/٢٠٩ •

(١٦) هو بشار بن برد العقيلى بالولاء ، أبو معاذ ، أشهر المولدين على الاطلاق كان ضريرا ، نشأ فى البصرة ، وقدم بغداد وأدرك الدولة الأموية والعباسية اتهم بالزندقة ، فضرب بالسياط مات سنة ١٦٧ هـ •

انظر الشعر والشعراء /٣٩١ ، وتاريخ بغداد ٧/١١٢ ، والأغانى ٣/٣١٥ والأعلام ٢/٥٢ •

فقـــال : ويلي على ابن القصارين(١٧) منى كانت الفصـــاحة فى بيوت القصارين دعونى وإياه مبلغ دلك سيبويه ، فبكى وجزع من ذلك ، فقيل له ما يبكيك ، فقال : مالى لا أبكى ، وقد وقعت فى لسان بشار الأعمى ، وانتهى الأمر بأن اعتذر أصحاب سيبويه عنه ، واستوهبوا من بشـــار عرضـــه .

ومن المناظرات بين النحـــاة والفقهاء تلك المنـــاظرة التى وقعت بين أبى يوسف(١٨) صاحب أبى حنيفة الفقيه ، وبين الكسائى ، وذلك حينما دخل أبو يوسف على الرشيد — والكسائى يمازحه — فقال لـــه أبـــو يوسف : هذا الكوفى قد استفرغك وغلب عليك فقال له : يا أبا يوسف انه ليأتنى بأشياء يشتمل عليها قلبى ، فأقبل الكسائى على أبى يوسف فقال : يا أبا يوسف هل فى مسألة ؟ قال : نحو أو فقه ؟

قال : بل فقه فضحك الرشيد ، حتى فحص برجله ، ثم قـــال : ألق على أبى يوسف ، فقال قال : نعم .

قال يا أبا يوسف : ما تقول فى رجل قال لامرأته : أنت طالق ان دخلت الدار ؟ قال : ان دخلت الدار طلقت .

قال : أخطأت يا أبا يوسف، فضحك الرشيد ثم قال كيف الصواب؟

---

(١٧) القصـــار من بحور الثياب ويدققهـــا قال ابن منظور : « قصر الثوب قصارة ، (عن سيبويه) وقصره كلاهما : حوره ودقه ، ومنه سمى القصار ، وقصرت الثوب تقصيرا مثله والقصار والمقصر : المحور للثياب » اللسان (قصر) جـ ٥/٣٦٤٩ .

(١٨) هو يعقوب بن ابراهيم بن حبيب الأنصارى الكوفى وهو أول من دعى قاضى القضاة على عهد الرشيد وأول من نشر مذهب أبى حنيفة كان فقيها علامة حافظا للحديث توفى سنة ١٨٣هـ تاريخ بغداد ١٤/٢٤٢ والأعلام ٨/١٩٣ .

قال : اذا قال : « أن » فقد وجب الفعل ، واذا قال « ان » فلم يجب ولم يقع الطلاق . قال : فكان أبو يوسف — بعدها — لا يدع أن يأتى الكسائى(١٩) .

وواضح من تلك المناظرات وتلك المحاورات مدى احتكام النحاة للقياس ، وما ينبغى للقاعدة من الاطراد بحيث لا يجوز لشاعر مهما كان فصيحا أن يخرج عليها .

وفى المناظرة السابقة ندرك المكانة التى كان يتبوأها الكسائى عند الخليفة العباسى هارون الرشيد ، هذه المكانة وتلك المنزلة التى تبوأها الكسائى الكوفى قد عبضها علماء البصرة ، منهم سيبويه الذى رأى من نفسه أنه جدير بتلك المنزلة ، وذلك لما وصل اليه من تفوق علمى ولغوى يؤهله ، لأن يكون جديرا بتلك المكانة المرموقة عند خلفاء بنى العباس ، بل رأى من نفسه أنه يفوق الكسائى فى العلم واللغة والنحو والأدب ، فهو أحق بها وأولى بسبب تأليفه : « الكتاب » .

هذا رأوه ، لأن ينال الحظوة عند خلفاء بنى العباس ، ولكن كيف يكون ذلك ؟ .

فى نظره أنه لن ينال ذلك الا بالذهاب الى بغداد ، عاصمة الخلافة العباسية ، ومناظرة امام الكوفة الذى استحوذ على الخليفة العباسى هارون الرشيد .

أسباب رحلة سيبويه الى بغداد

عاش سيبويه طيلة حياته عيشة الزهد والتقشف مثل أستاذه الخليل بن أحمد (١٧٠) هـ ، لكن ما ان سمع أن الكوفيين قد نالوا

---

(١٩) طبقات النحويين واللغويين /١٢٧ .

الحظوة والمنزلة لدى خلفاء بنى العباس ، حتى تاقت نفسه الى عيشة الرغد والسعة حيث قصور الخلفاء وكثرة الأموال والأعطيات ونعومة العيش فى دار السلام مدينة بغداد عاصمة الخلافة الاسلامية فما من شك فى أن ذهاب سيبويه الى بغداد كان من أجل أن ينال المكانة المرموقة دون غيره من علماء الكوفة الذين هم أقل منه علما ، وقد سبقوه الى تلك المكانة ، بتربية أولاد الخلفاء والوزراء وتأديبهم ، ولا يضير الانسان شيء من الترحال لكى ينال ذلك ، مادام أنه كان لذلك أهلا .

وقد يكون ما سمعه وما علمه من اصابة الكسائى بمرض(٢٠) « الوضح » مشجعا له على السفر ، و« الوضح » : بياض بالجلد يقال له : البرش والبرص ، وقد كره الرشيد ملازمة الكسائى لأولاده وفيه هذا المرض فأمره أن يرتاد ويختار لهم من ينوب عنه ممن يرتضى به ، فاختار — بعد انحاح — على(٢١) بن الحسن الأحمر .

أقول لعل علم سيبويه بهذا المرض الذى أصاب الكسائى — شجعه على السفر والرحلة الى بغداد ، فلربما يقع الاختيار عليه ، وهو الشاب السليم المعافى .

ولكن هذا وحده لا يكفى الا اذا أظهر تفوقه ونبوغه العلمى وذلك بمناظرة الكسائى .

---

(٢٠) معجم الأدباء ٦/١٣ ، ٧ ، وبغية الوعاة ١٥٨/٢ .

(٢١) هو على بن الحسن (أو المبارك) المعروف بالأحمر ، مؤدب المأمون العباسى وشيخ النحاة فى عصره ، كان جنديا من رجال النوبة على باب الرشيد وأخذ العربية عن الكسائى وأوصله الى الرشيد لتأديب أبنائه كان قوى الحفظ ، له بعض المصنفات فى النحو توفى سنة ١٩٤هـ . انظر تاريخ بغداد ١٠٤/١٢ ومعجم الأدباء ٥/١٣ وانباه الرواة ٣١٣/٢ والأعلام ٢٧١/٤ .

ذهب سيبويه الى بغداد ، وهو ابن(٢٢) اثنتين وثلاثين سنة ونزل على الوزير يحيى(٢٣) بن خالد البرمكى وقال له : جئت لتجمع بينى وبين الكسائى ولكن بحيى بن خالد أمره الا يفعل لأن الكسائى شيخ مدينة السلام وقارئها ومؤدب ولد أمير المؤمنين وكل من فى المصر له ومعه(٢٤) .

ولما بلغ الكسائى خبر مجىء سيبويه الى بغداد شق أمره عليه فأتى جعفر بن يحيى وأخاه الفضل بن يحيى وقال: أنا وليكما وصاحبكما، وهذا الرجل اما قدم ليذهب محلى قالا فاحتل لنفسك فانا سنجمع بينكما (٢٥) .

واكن يبدو مما سبق أن سيبويه هو الذى طلب المناظرة بينه وبين الكسائى ثقة بنفسه ورغبة فى النصر والغلب ، وهو الشاب المتطلع الى المجد ونيل الحظوة عند الخلفاء والأمراء .

ويقال(٢٦) : ان يحيى بن خالد البرمكى هو الذى طلب أن يجمع بينه وبين الكسائى وهنا يدور فى النفس سؤال ، وهو فى أى دار وقعت المناظرة أو تم الجمع بين سيبويه والكسائى ؟

---

(٢٢) الفهرست /٧٦ .

(٢٣) هو يحيى بن خالد البرمكى ، أبو الفضل الوزير السرى الجواد سيد بنى برمك ، ولما ولى هارون الرشيد الخلافة ، دفع خاتمه الى يحيى وقلده أمره فبدأ يعلو شأنه ، واشتهر بحسن سياسته ثم سجنه الرشيد بالرقة فمات سنة ١٩٠هـ .

وفيات الأعيان ٢٦٥/٥ ، وتاريخ بغداد ١٢٨/١٤ ، والأعلام ١٤٤/٨ .

(٢٤) الانصاف /٧٠٣ ، وطبقات النحويين واللغويين /٦٦ .

(٢٥) المرجع السابق /٤٠ .

(٢٦) المغنى لابن هشام /٨٨ .

المكـــان الذى دارت فيـــه المنـــاظرة

يختلف العلماء فى الاجابة على السؤال السابق ، والذى لا شـــك فيه أنها كانت فى دار السلام مدينة بغداد عاصمة الخلافة الاســـلامية وفى عصر هارون الرشيد الخليفة العباسى •

ولكن بعض العلماء يقول : انها كانت فى دار(٢٧) الرشيد ، وقيل : كانت فى دار(٢٨) يحيى بن خالد البرمكى أى دار الوزارة ، وقيل(٢٩) كانت فى مجلس الأمين(٣٠) •

والذى نرجحه من تلك الأقوال أنها كانت فى دار الوزارة للأسباب الآتيـــة :

١ ـــ ما ورد فى الأخبار أن سيبويه قصد(٣١) البرامكة فطلب من يحيى ابن خالد الوزير أن يجمع بينه وبين الكسائى أو أن يحيى(٣٢) هو الذى عزم على أن يجمع بينهما •

---

(٢٧) معجم الأدباء ١١٩/١٦ •

(٢٨) الانصاف /٧٠٣ وطبقات الزبيدى /٦٨ •

(٢٩) انظر معجم الأدباء ١١٩/١٦ •

(٣٠) هو محمد بن هارون الرشيد بن المنصور ، خليفة عباسى ، بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه سنة ١٩٣هـ فولى أخاه المأمون خراسان وأطرافها وكان المـأمون ولى العهـد من بعده ، وفى سنة ١٩٥ أعلن الأمين خلعـه فقامت بينهما الحروب انتهت بقتل الأمين ســنة ١٩٨ • تاريخ بغداد ٣٦٦/٣ والأعلام ١٢٧/٧ •

(٣١) طبقات الزبيدى /٧١ والمغنى /٨٨ •

(٣٢) حاشية الدسوقى على المغنى ٩٥/١ •

٢ — أن يحيى البرمكي كان بمثابة الحكم والقاضي حينما دارت رحى المناظرة بين سيبويه والكسائي وذلك يبدو من قوله(٣٣) : « قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما ، فمن يحكم بينكما ؟ » وكيف يكون هو الحكم وأمير المؤمنين هارون الرشيد موجود .

٣ — أنه لم يجر ذكر للخليفة هارون الرشيد في وقائعها ، وحين دارت المناظرة فهذا يدل على أنها لم تكن في دار الرشيد .

٤ — يروى أن يحيى(٣٤) بن خالد هو الذي وصل سيبويه بعشرة آلاف درهم ، ولو كان الخليفة موجودا ، لكان هو الذي وصله بذلك .

٥ — ما يروى أن الكسائي قال ليحيى بن خالد البرمكي ، حين طلب من يحكم بينهما : « عندك العرب ببابك قد جمعتهم من كل أوب ووفدت عليك من كل صقع »(٣٥) فالخطاب موجه الى يحيى باضافة « باب » الى ضمير المخاطب ، مما يدل على أنه دار الوزارة .

الاعداد للمناظرة

لم تكن المناظرة بين سيبويه والكسائي بالصدفة أو على غير اعداد ، بل سبقها اعداد وتحديد يوم،وهيىء لها مجلس تنعقد به ، وهو — كما رجحنا فيما سبق — بدار الوزارة البرمكية .

وطلب كثير من وجهاء القوم للحضور وطلاب العلم ومحبوه ، بل حضرها الوزراء وأبناء الخلافة وقد تكون تمت بحضور الرشيد نفسه الخليفة العباسي .

---

(٣٣) بغية الوعاة ٢/٢٣٠ .
(٣٤) معجم الأدباء ١٦/١٢٠ .
(٣٥) طبقات الزبيدي /٧١ .

يدل على ذلك ما رواه ياقوت حيث يقول(٣٦) : « فلما كان ذلك اليوم غدا سيبويه وحده الى دار الرشيد ، فوجد الفراء(٣٧) والأحمر وهشام(٣٨) بن معاوية ومحمد بن سعدان قد سبقوه(٣٩) ووافى الكسائي وقد نسق أمره عليه معه خلق كثيرون من العرب » .

فالمناظرة قد حضرها كثير من طبقات المجتمع البغدادي الخلفاء وأبناء الخلفاء والوزراء وأبناء الوزراء والعلماء وتلاميذ العلماء ، وناس كثير من الأعراب الذين وثق الرواة بهم .

موقف تلاميذ الكسائي من سيبويه

لا شك أن التلميذ — بجانب من الوفاء — يحمل ويكن الولاء لشيخه ويجل آراءه ويحترمه ، ولو فعل تلاميذ الكسائي هذا لشيخهم لما لامهم أحد ، ولكن تحاملهم وتعصبهم وغضبهم من رأي سيبويه

---

(٣٦) معجم الأدباء ١١٩/١٦ .

(٣٧) هو يحيى بن زياد بن عبد الله الديلمي مولى بني أسد ، امام الكوفيين في النحو ، ولد بالكوفة وانتقل الى بغداد ، وكان مع تقدمه في اللغة — عالما متكلما فقيها ، من كتبه المقصور والممدود ومعاني القرآن والمذكر والمؤنث وغيرها توفي سنة ٢٠٧ تقريبا . انظر مراتب النحويين/ ٨٠ وطبقات الزبيدي /١٦١ ، والشعر والشعراء /٣٠٨ .

(٣٨) هو هشام بن معاوية النحوي الكوفي أبو عبد الله الضرير ، عرف بصحبة الكسائي ، من كتبه : الحدود والمختصر مات سنة ٢٠٩هـ انظر الفهرست /٧٠ ، ومعجم الأدباء ٢٩٢/١٩ ، ونزهة الألباء /٢٢٢ ووفيات الأعيان ١٣٤/٥ والأعلام ٨٨/٨ .

(٣٩) هو محمد بن سعدان النحوي الكوفي أبو جعفر ، نحوي مقرئ ضرير له كتب في النحو والقراءات توفي سنة ٢٣١هـ انظر غاية النهاية ١٤٣/٢ وتاريخ بغداد ٣٢٤/٥ وطبقات الزبيدي /١٣٩ والأعلام ١٣٧/٦

مناصرة لرأى شيخهم الكسائى وتخطئتهم لسيبويه ولو بالباطل — فهذا ما تلومهم عليه ، ولا نحمله لهم كما يقرر علم اللغة الحديث الذى يشترط فى الباحث النزاهة فى الحكم والبحث والموضوعية وعدم الأحكام الذاتية التى تخل بموضوع البحث اللغوى .

يقول الدكتور / عيد الطيب : « من الأخطاء المحدقة بالبحث عن الموضوعية واصدار أحكام ذاتيـة مبعثها الهوى والغرض أو الفكـر المسبق الذى لا تؤيده المـادة العلمية أو الأدلة العقلية أو الملاحظـة المجردة من التأثر بأفكار شائعة ومعلومات سائدة ....

على الباحث أن يبحث المشكلة موضوع البحث بموضوعية تامـة لا أثر فيها للذاتية أو التحيز لفكر أو هوى حتى تكون نتائجه صحيحة بقدر المستطاع وحتى تكون مصطبغة بالصبغة العلمية » .

هكذا يجب أن يعتمد الباحث فى اللغة — فى كل ما يصدر من أحكام على الموضوع دون أن يكـون لهواه دخـل فى تغيير مسـار البحث ، والا جاءت الاحكام ذاتية يبعثها الغرض ويدفع اليها الهوى الشخصى والحكم الذاتى ، وتلك أبرز عيـوب البحث التى تبعـده عن الوصـف بالعلميـة .

فما بعد تلاميذ الكسائى مع سيبويه لا يؤيده علم اللغة الحديث ولا يقره اذ كانت مناقشاتهم له تحمـل طابع التعصب والهـوى ضد سيبويه مناصرة لشيخهم الكسائى ، وهذا يتضح فيما دار بينهم وبين سيبويه كما سيأتى :

---

(٤٠) نحو بحث منهجى / ٨١ .

أسئلة الأحمر لسيبويه

يبدو لنا أن أبا الحسن على بن المبارك المعروف بالأحمر كان أحد المتآمرين على كسب المعركة العلمية لشيخه الكسائى ، ولو على حساب العلم نفسه ويظهر تعصبه هذا وتحامله على سيبويه فيما دار بينهما من أسئلة .

يقول ياقوت متحدثا عن المناظرة «... فسأله الأحمر عن مائة مسألة فما أجاب عنها سيبويه بجواب الا قال : أخطأت يا بصرى فوجم(٤١) سيبويه وقال : هذا سوء أدب »(٤٢) .

لم يرو أحد من العلماء مسألة واحدة من تلك المسائل المائة ولم يكشف أحد عنها النقاب بعد ، بل يذكرون العدد فقط ، وأرى أن هناك مبالغة فى ذكرهم هذا العدد لأن المقام لا يسع أن يسأل الأحمر مائة مسألة ، ولا يعقل أن يسأل سيبويه مائة مسألة ولا يجيب فى واحدة منها ولو بطريق الصدفة ، ولذن يبدو أن الأحمر متحامل ومتعصب لشيخه الكسائى الكوفى ضد سيبويه البصرى .

والذى هو أقرب للصواب ما ذكره(٤٣) ابن هشام من أن الأحمر سأل عن مسألة ، فأجاب فيها فقال له : أخطأت ، ثم سأل ثانية وثالثة وهو يجيبه ويقول له : أخطأت فقال له سيبويه : « هذا سوء أدب » فهذا العدد يمكن أن يتقبل .

ولا يفصح أصحاب التراجم والرواة عن ماهية تلك الأسئلة فكنا

---

(٤١) سكت على غيظ .

(٤٢) انظر معجم الأدباء ١١٩/١٦ .

(٤٣) المغنى /٨٨ .

فعرف الحكم أو وجه الصواب في اجابة عليها ، ولكن الذى نوقن بـه هو تحامل الأحمر على سيبويه ليضعف من هيبته ويقلل من قواه اذا هو أراد أن يلقى الكسائى فى المناظرة .

ويلحظ التعصب والتحامل فى قوله : « أخطأت يا بصرى » فهـو يخطئه ولو بالباطل . وفى اضافته الى البصرة اظهارا للتعصب الاقليمى، فهو لم يدعه باسمه ، ولكن بالنسبة الى بلده .

هـذا التعصب والتنافس بين المصرين : البصرة والكوفة — كان سـببا فى طمس كثير من الحقائق العلميـة وتغيير لها عن حقيقتهـا ، والتعصب الاقليمى لا يقره الدرس اللغوى الحديث ، هـذا التعصب جعلنا نحتاط فى الحكم فى تلك المناظرة كما نحتاط فى مروياتها وأحداثها ووقائعها فلربما التعصب الاقليمى قد تدخل فى كثير منها فطمس كثيرا من معالمها وأخبارها نحتاط فى قبول مرويات تلك المناظرة حتى تكون النتائج سليمة وواقعية .

أسـئلة الفـراء لسـيبويه

وكما ظهر فيما سـبق تحامل الأحمر الكوفى على سيبويه البصرى بسبب التعصب الاقليمى ، وذلك ما لا يرتضيه المنهج اللغوى الحديث — كذلك يظهر هذا التعصب فى أسئلة الفراء الكوفى تلميذ الكسـائى ضـد سيبويه البصرى ، وكان غرضهما من ذلك تثبيط همـة وعزيمة سيبويه حتى يلقى الكسائى شيخهما وقد فقد كثير من قواه وعزيمته اذا هو هم بمناظرتـه(٤٤) .

يقول الخطيب(٤٥) : « ولمـا دخل سيبويه من البصرة الى مدينة

---

(٤٤) انظر سيبويه امام النحاة /١٠٨ .
(٤٥) تاريخ بغداد ١٢/١٩٧ .

السلام أتى حلقة الكسائى وفيها غلمانه : الفراء وهشام ونحوهما ، فقال الفراء للكسائى : لا تكلمه ودعنا واياه ، فلما جلس سيبويه سأل عن مسائل ، والفراء يجيب ثم قال الفراء : ما تقول فى قول الشاعر •

تـ ت بقربى الزينبين كلاهما اليك وقربى خالد وسعيد(٤٦)

فلحق سيبويه حيرة السؤال ، وقال : أريد أمضى لحاجة وأدخل ، فلما خرج قال الفراء لأهل الحلقة : قد جاء وقت الانصراف ، فقوموا بنا فقاموا فخرج سيبويه ، وذكر علة البيت ، فرجع فوجدهم قد انصرفوا»

يبدو أن هذه الأسئلة التى قد دارت فى هذا اليوم كان فى اليوم السابق على يوم المواجهة بين سيبويه والكسائى الذى أعده لهما الوزير البرمكى ذلك اليوم الذى طلب فيه سيبويه المناظرة بينه وبين الكسائى كما بينا ذلك فيما سبق •

كما يبدو لنا فى هذا النص تحامل الفراء على سيبويه وذلك لأنه لم يوضح المطلوب فى سؤاله ولم يعين المسئول عنه فى البيت بل جعله عاما مبهما ، ولذلك لحقت سيبويه حيرة السؤال •

---

(٤٦) البيت من بحر الطويل وقائله هشام بن معاوية ، يمت : يتوسل وينتسب اليك بقرابة الزينبين وقرابة خالد وسعيد ، ويروى : وحبيب والشاهد فى « كلاهما » حيث وقع موقع كلتاهما على تأويل الشخصين للضرورة فهو من تذكير المؤنث حملا على الضرورة ، كما أنه جاء على لغة من يلزم المثنى الالف فى الحالات الثلاث : الرفع والنصب والجر •

انظر الأشمونى ٣/٧٨ ، والعينى ٤/١٠٦ ، وتاريخ بغداد ٢/١٦٧، واللسان « م ت ت » ج ٦/٤١٢٥ •

كما يبدو ذلك التعنت وارادة الانتصار لشيخه ولو بالباطل في قوله : « لا تكلمه ودعنا وإياه فان العامة لا تعرف ما يجرى بينكما وتغليبها بالظاهر » .

فهذا ما لا يوافق عليه علم اللغة الحديث لأن الأسئلة لم تكن للافادة أو لاحقاق الحقائق العلمية وتوضيح غوامض المسائل والأفكار ، وكل هذا يحمل في طياته ما يكنه تلاميذ الكسائي من حقد وغيظ من سيبويه كما يحمل الحب والولاء لشيخهم الكسائي .

هذا ويبدو أن سؤال الفراء كان منصبا على لفظ « كلاهما » كيف جاء مؤنثا بلفظ المثنى المذكر ، والمؤكد « الزينبين » مؤنث وكيف جاء بالألف ، والمؤكد مجرور ، وتوجيه مثل هذا لا يخفى على سيبويه ولا على تلميذ من تلاميذه .

ما يروى أن الفراء سأل سيبويه سؤالا آخر(٤٧) وهو : ما تقول فيمن قال : هؤلاء أبون ، ومررت بأبين كيف تقول : على مثاله من : وأيت أو أويت فقدر فأخطأ .

فقال الفراء : أعد النظر ، فقدر وأخطأ ، فقال : أعد النظر ثلاث مرات وهو في كل مرة يجيب ولا يخطىء .

هكذا يبدو تحامل الفراء وصديقه الأحمر على سيبويه حتى أكثرا عليه وضاق بهما فقال لهما : « لست أكلمكما أو يحضر صاحبكما فأناظره »(٤٨) .

---

(٤٧) انظر طبقات النحويين واللغويين /٧٠ .

(٤٨) المغنى لابن هشام /٨٨ .

كل هذا يؤكد ما ذكر السيوطى من أن الفراء كان زائد العصبية على سيبويه وكتابه تحت رأسه(٤٩) .

موقف علم اللغة الحديث من التمارين غير العملية

ان السؤال السابق الذى سأله الفراء لسيبويه مما يسمى بالتمارين غير العملية ويقصد بها : ايجاد كلمات قياسا على كلمات أخرى(٥٠) .

وقد يكون هذا السؤال من أولياتها ومن أسباب وجودها فيما بعد فى النحو العربى ، فقد درست تلك التمارين باستفاضة ووضعت لها قواعدها وأصولها .

واذا رجعنا الى سؤال الفراء يبدو تحامله على سيبويه وزيادة تعصبه لأنه كيف يعقل أن سيبويه يخطىء فى مثل هذه الصياغة ، وهى لا تخفى على أصاغر الطلبة(٥١) مما كان سيبويه ولا تاميذ من تلاميذه أن يعبأ بمثل هذه الصياغة(٥٢) .

ويجدر بنا أن نبين رأى كل من الفراء وسيبويه فى وزن كلمة « أب » حتى ندرك كيف تختلف الصياغة على مثالها اذا اختلفا فى وزنها .

يرى سيبويه(٥٣) أن كلمه « أب » على وزن « فعل » مثل

---

(٤٩) انظر بغية الوعاة ج ٢/٣٣٣ .
(٥٠) أصول النحو العربى فى رأى النحاة /٩٠ .
(٥١) مغنى اللبيب لابن هشام ١/٧٧ .
(٥٢) انظر سيبويه امام النحاة /١١٢ .
(٥٣) انظر شرح الأشمونى وحاشية الصبان عليه ج ١/٦٥ ، وحاشية الأمير على المغنى ج ١/١٤٤ .

« فتى » وحجته أن الكلمة سمع فيها « أبا » بالقصر كفتى ، والواو المتحركة لا تقلب ألفا الا اذا انفتح ما قبلها ، وبأن مثناها : أبوان بفتح الباء وتجمع على آباء ، والساكن العين لا يجمع قياسا على أفعال الا اذا اعتلت عينه ، فتكون الصياغة من : وأى أو أوى على منوالها فى رأيه : وأى أو أوى كهوى واذا جمعا بالواو والنون مسمى مهما حذفت الألف وبقيت الفتحة قبلها دليلا عليها كما تحذف من كل مقصور عند جمعه فيقال : وأون أو أوين .

أما مذهب(٥٤) الفراء فى هذه الكلمة فهو يرى أنها على وزن «فعل»بفتح فسكون فتكون الصياغة على مذهبه : من«وأى»وأى بسكون الهمزة ، ومن « أوى » : أى كلاهما كطبى ، وأصل « أى » : أوى ، قلبت الواو ياء لاجتماعهما مع الياء وسبقها بالسكون ، وجمعهما مسمى بهما : وأيون — (بفتح الواو وسكون الهمزة وضم الياء) — و « أيون » بفتح الهمزة وضم الياء مشددة .

فاذا أجاب سيبويه وفق مذهبه هو خالفه الفراء لأن مذهبه لم يوافق سيبويه فيها ، ولم يكن لسيبويه أن يعدل عن رأيه فى وزن كلمة « أب » ليوافق هوى الفراء فى تلك الاجابة .

وقد يكون الفراء لا يعلم برأى سيبويه البصرى فى هذه الكلمة فخطأه فيها ، وكذلك سيبويه قد لا يعلم برأى الفراء فى وزنها وكان نتيجة ذلك أن أخطأ فى صياغتها على مذهب الفراء .

وهذا الذى حدث من تخطئة لاختلاف المذهبين فى المسألة الواحدة قد وقع مثله أكثر من مرة يقول أبو عثمان المازنى(٥٥) : « دخلت

---

(٥٤) انظر شرح الأشمونى وحاشية الصبان عليه ١/٦٥ .
(٥٥) المغنى لابن هشام ١/٧٧ .

بغداد تلقيت على مسائل ، فكنت أجيب فيها على مذهبي ، ويخطئونني على مذاهبهم » .

أسباب وجود التمارين غير العملية فى النحو العربى

منذ سأل الفراء سيبويه السؤال السابق والنحاة يدرسون مثاله مما يسمى بالتمارين غير العملية ، وهى لا تقتصر على المفردات بل ينضم اليها تلك الجمل التى ترد قياسا على قواعد توضع ويجب اطرادها(٥٦) وهذه الجمل لم يأت لها نظير فى كلام العرب ، وانما الذى دفع النحاة الى دراستها يرجع الى ما يأتى :-

١ - المنافسة العلمية بين مدرستى البصرة والكوفة والتعصب الاقليمى بينهما .

٢ - اظهار المقدرة على الصناعة والتعمق فى القياس ، كما ظهر هذان السببان فى سؤال الفراء لسيبويه .

٣ - ذكاء وفطنة النحاة الأوائل ، وتوقد قرائحهم ، وقلة مشاغلهم رمشاغلهم ، وتوافرهم على دراسة العلوم والفنون ، وازدياد همتهم وجدهم واجتهادهم فى تحصيلها ، أما اليوم فقد ضعفت الهمم ، وتبلدت القرائح ، وكثرت المشاغل والمشاكل ، بمتطلبات الحياة اليومية الزائدة المترفة مما جعلنا وجعل الطلاب يضجون من دراسة كتب التراث عامة وكتب تراث النحاة خاصة ، حتى علت صيحات بتيسير النحو وتسهيله وابعاد كثير من الأبواب والمسائل التى لا جدوى من دراستها لعدم الاحتياج اليها وبخاصة تلك التمارين غير العملية فى النحو العربى .

وقد حمل لواء المعارضة عالم مستنير قبل علماء العصر الحديث

---

(٥٦) أصول النحو العربى فى نظر النحاة /٩٠ .

وذلك للعالم هو ابن مضاء(٥٧) القرطبي في كتابه : « الرد على النحاة » حيث يقول(٥٨) . « ومما ينبغي أن يسقط من النحو : ابن كذا من كذا ، كقولهم : ابن من البيع مثال : « فعـل » فتقول : بوع ، أصله : بيع ، فيبدل من الياء واوا لانضمام ما قبلها ، لأن النطق بها ثقيل » .

وقد كان منه ذلك لأن المذهب الظاهري الذي كان يدين به ابن مضاء بل وكان على رأس منتديه - يقـوم على التمسك بحرفية النصـوص وتحريم القياس واستبعاد التعليلات منها .

ثم يمضي ابن مضـاء في الجملة على النحاة ومعارضتهم في تلك التمارين الغير واقعية ، فنراه يذكر في كتابه أمثلة منها ويبين ما حدث فيها من اعـلال وابدال يطـول ويفهم بعد طـول عناء وكد ذهن ثم يقول(٥٩) : «وهذا في مسألة واحدة، فكيف اذا أكثر من هذا الفن وطال فيه النزاع وامتدت اليه أطناب القول ، مع قلة جداه وعدم الاعتقـار اليه ، والناس عاجزون عن حفظ اللغة الفصيحة الصحيحة ، فكيف بهذا المظنون المستغنى عنه » .

موقف عالم اللغـة الحديث منها

رحم الله ابن مضاء فقد سبق علم اللغة الحديث في رأيه السابق ، فهو يريد أن يريحنا من عناء هذه المسائل والتمارين غير الواقعية يريد أن يريحنا من كل ما يعدل بنا عن صيغ اللغة الفصيحة الى ظنون النحاة

---

(٥٧) هو أحمد بن عبد الرحمن بن محمد ، المعروف بابن مضاء اللخمي القرطبي ، قاضي الجماعة ولد بقرطبة سنة ٥١٣هـ وتوفي باشبيلية سنة ٥٩٢هـ كان عالما فقيهـا ومؤلفا مبتكرا . انظر بغية الوعاة ١/٣٢٣ ، والأعلام ١/١٤٦ ، ومقدمة كتاب « الرد على النحاة .

(٥٨) الرد على النحاة /١٣٨ .

(٥٩) الرد على النحاة /١٤٠ .

من عبارات لا يستخدمها وألفاظ يمتحن بهـا بعضـهم بعضا ، وهي لا تجرى فى كلام العرب ، وانما تجرى على ألسنة النحاة .

وهذا ما يوافقه عليه علم اللغـة الحديث فعلماء اللغـة المحدثون يرون أن هذه المسائل مع غيرها مما أفسد النحو العربى افسادا ، لأنـه ملىء بمسائل ومشاكل لا نحتاج اليها فى تصحيح نطقنا وتقويم لساننا فهى لا تفسر غامضا من غوامض التعبير ، ولا دفينة من دقائق الاسلوب وانما تفسر فروضا للنحاة وظنونا مبهمة(٦٠) .

وعلم اللغة الحديث يرى أن هذه التمارين الغير واقعية ــ لا تقدم للغة شيئا مفيدا ، فهى تدل على البراعة الذهنية أكثر مما تخدم اللغة .

لقد رفض علم اللغة الحديث قياس التمارين غير العملية سـواء أكان ذلك فى المفردات أو الجمل . وأساس هذا الرفض أن العلاقة فى هذا القياس علاقـة مختلفة لأنها بعيدة أو مظنونة وأن كلام العـرب وفصاحته لا يتفق وهذه التمارين .

يقول الدكتور / محمد عيد : « ورفض هذه التمارين صحيح من وجهة النظر اللغوية الحديثة ، فهى مجهود دراسى عقيم لا يخدم اللغة بقدر ما يجهد الذهن ويشوش منهج الدراسه ، وقد حـدث ذلك على أساس افتراض الصحة والخطأ فى الجمل والصيغ اعتمادا على الذهن لا على العرف ... ان الأساس لمناقشة هذه الفكرة هو العرف اللغوى الاجتماعى فهو وحده صاحب الحق فى قبول الجمل والكلـمات التى تصاغ على أساس النماذج اللغوية المتعارف عليها ، وليس الأمر موكولا الى الذهن وما يصنعه من أقيسة . والتمارين غير العملية منشؤها الذهن

---

(٦٠) أصول النحو العربى /١٢٥ وما بعدها .
(٦١) أصول النحو العربى فى نظر النحاة /١٢٥ ، ١٢٦ .

والأقيسة ، فقد قامت اذن على أساس شخصى تحكمى ، وبانعدام هذه الصفة الاجتماعية فى هذه التمارين فقد أهم خاصية للغة ، ومن حق الباحث رفضها وعزلها عن اللغة » .

حقا لقد كان ابن مضاء القرطبي موفقا فى رفض هذا النوع من التمارين على أساس اللغه وصحتها ، وهذا مسلك يتفق فى روحه مع منهج علم اللغة الحديث .

رحم الله الفراء فقد وسع بسؤاله هذا بابا فى اللغة ما كان ينبغى أن يكون فان التمارين وتلك الصياغة لا يمكن وصفها بأنها من اللغة اذ لم تستعمل هى ولا نماذج مماثلة لها فيها ، فهى صناعة نحوية ، بل صناعه غير مفيدة ومن حقها الرفض .

وفى رأينا أن المسئول عن وجود تلك التمارين غير العملية فى النحو العربى الخليل وتلميذه سيبويه فهما اللذان فتحا باب التمارين غير العملية على مصراعيه ، حيث اننا نرى سيبويه يتوقف فى كتابه مرارا ليسأل أستاذه عن تطبيق قاعدة فى مثال لم يأت عن العرب ، وعمم النحاة ، ذلك فيما بعد واتسعوا فيه اظهارا لمهارتهم ، وقد يكون بعض ذلك لمحاولة تدريب الناشئة النحاة على الدقة فى التطبيق(٦٢) .

المواجهة بين سيبويه والكسائى

بدأت المناظرة بين سيبويه وتلاميذ الكسائى ، وكان غرضهم من ذلك أن يضعفوا من قوى سيبويه وعزيمته اذا هو أراد أن يناظر شيخهم الكسائى ، وليفلوا من حدته ويخضدوا من شوكته ، فيلقى الكسائى ، وقد فقد شيئا مما يلقى به المهاجم منافسه ، من حماسة

---

(٦٢) المدارس النحوية لشوقى ضيف /٥٥ .

وثقة وتصميم(٦٣) ، وقد كان ذلك منهم مع ازدياد العصبية ضده ، حتى انهم كانوا يخطئونه فى كل ما يجيب به ، ويقولون له : أخطأته يا بصرى ، مما جعل سيبويه يقول : لست أكلمكما حتى يحضر صاحبكما (٦٤) فى خطابه للأحمر والفراء كما سبق .

وهنا يحضر الكسائى لمجلس المناظرة الذى أعده لهما الوزير البرمكى يحيى بن خالد وزير هارون الرشيد ، يحضر الكسائى ومعه ناس من الأعراب ، أو يحضر بمفرده والاعراب كانوا من قبل فى انتظار تلك المناظرة ولمشاهدة ما يدور فيها بين هذين اللغويين المكبرين .

وتختلف كتب التراجم فى أشياء كثيرة من أحداثها ووقائعها ، وهنا نرويها كما رواها الزبيدى بقوله (٦٥) : «حضر الكسائى ، فأقبل على سيبويه فقال : تسألنى أو أسألك فقال : ، بل تسألنى أنت فأقبل عليه الكسائى فقال : ما تقول ، أو كيف تقول(٦٦) ، قد كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور(٦٧) فاذا هو هى أو فاذا هو اياها ؟

---

(٦٣) سيبويه امام النحاة /١٠٨ .

(٦٤) المغنى لابن هشام /٨٨ .

(٦٥) طبقات الزبيدى /٧١ .

(٦٦) كما يروى الزبيدى فى طبقاته /٦٨ « أن الكسائى حضر ومعه الفراء والأحمر وغيرهما من أصحابه فسألوه كيف تقول : كنت أظن ان العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذا هو هى أو فاذا هو اياها » فهذا يدل على أن تلك المسألة لم تكن من الكسائى بمفرده ، وهذا خلاف المشهور من أن السائل هو الكسائى .

(٦٧) قال ابن منظور : « الزنبور والزنبار والزنبورية : ضرب من الذباب لساع » اللسان مادة « ز ن ب ر » ج ٣/١٨٦٨ .

قال سيبويه : « فاذا هو هى » ولا يجوز النصب فقال الكسائى لحفت ، ثم سأله عن مسائل من هذا النوع : خرجت فاذا عبد الله القائم ـ بالرفع أو « القائم » ـ بالنصب .

قال سيبويه فى ذلك كله بالرفع دون النصب فقال الكسائى : ليس هذا كلام العرب ، العرب ترفع فى كل ذلك وتنصب ، فدفع سيبويه قوله فقال يحيى بن خالد : قد اختلفتما وأنتما رئيسا باديكما ، فمن ذا يحكم بينكما ؟

قال الكسائى : هذه العرب ببابك(٦٨) ، قد جمعتهم من كل أوب ، ووفدت عليك من كل صقع(٦٩) ، وهم فصحاء الناس ، وقد قنع بهم أهل المصرين ، وسمع أهل الكوفة وأهل البصرة منهم ، فيحضرون ويسألون ، فقال يحيى وجعفر : قد أنصفت وأمر باحضارهم .

فدخلوا وفيهم . أبو مقعس(٧٠) وأبو دثار(٧١) وأبو زياد(٧٢)

---

(٦٨) يروى فى بعض المراجع « بباب أمير المؤمنين » وهذا يدل على أن المناظرة قد جرت بدار الخليفة هارون الرشيد الخليفة ، وليست بباب الوزير يحيى بن خالد البرمكى .

انظر طبقات الزبيدى /٦٩ .

(٦٩) قال ابن منظور : « الأدب : الناحية والطريق » اللسان « أوب » جـ ١ /١٦٧ .وقال : « الصقيع ـ بضم الصاد وسكون القاف ـ ناحية الأرض والبيت ، وصقع الركية : ما حول البئر وما تحتها من نواحيها ، والجمع : أصقاع ، وفلان من أهل هذا الصقع : أى من أهل هذه الناحية» اللسان « ص ق ع » جـ ٤/٢٤٧٢ .

(٧٠) لعله محمد بن عبد الملك الأسدى ، رواية بنى أسد وصاحب مآثرها وأخبارها وكان شاعرا ، وعنه أخذ العلماء مآثر بنى أسد ، وبالرغم من أن بنى أسد من القبائل الفصيحة ، فان الفقعسى متهم بسبب تعلقه =

وأبو الجراح(٧٣) وأبو ثروان(٧٤) فسئلوا عن المسائل التي جرت بين الكسائي وسيبويه ، فشايعوا الكسائي وقالوا بقوله .

فأقبل يحيى على سيبويه ، فقال : قد تسمع أيها الرجل ، قال : فاستكان سيبويه وأقبل الكسائي على يحيى ، فقال : أصلح الله الوزير، قد وفد عليك من بلده مؤملا ، فان رأيت ألا ترده خائبا ، فأمر له (٧٥)

=

برجال الكوفة وشهادته مع الكسائي في المناظرة انظر معجم البلدان ١٣٤/١ والفهرست /٧٣ .

(٧١) هو أبو دثار الفقعسي قال ابن النديم عنه : « جزء له اللحن فيه » انظر الفهرست /٧١ والأعراب الرواة /١٩٠ .

(٧٢) هو يزيد بن عبد الله بن الحر ، أبو زياد الكلابي ، قدم بغداد أيام المهدي حين أصابت الناس المجاعة ونزل قطيعة بني العباس بن محمد ينسب اليه كتاب النوادر ، وروى عنه كثير من العلماء كالفراء وابن الأعرابي وأبي عبيد انظر الفهرست /٦٧ ، ومعجم الأدباء ١٨٦/١٨ والأعراب الرواة /٢٥٣ .

(٧٣) هو جرو بن قطن ، من الأعراب الذين شهدوا مع الكسائي على سيبويه وكان حكما من الحكام اللغويين في مجالس الولاة . الفهرست ٨٦ ، وأنباه الرواة ١١٧/٤ .

(٧٤) هو من أعراب بني عكل ، وصف بالوحشي ، سكن الكوفة ، وأكثر الفراء الرواية عنه في معاني القرآن وغيره وهو يعلل لاختلاف القراءات ، وذكر ابن السكيت أن أبا ثروان كان يعلم في البادية وله كتاب خلق الانسان ومعاني الشعر . انظر الفهرست /٦٩ ومعاني القرآن ٤/١ وطبقات الزبيدي /٧٢ والأعراب الرواة /١٨٣

(٧٥) تفيد بعض الروايات أن البرامكة أعطوه ، وأخذوا له من الخليفة العباسي هارون الرشيد ، ويفيد بعضها أن يحيى بن خالد البرمكي أجازه

=

بعشرة آلاف درهم فخرج وصيره الى فارس ، فأقام هناك حتى مات، ولم يعـــد الى البصرة » .

هذا وقعت المناظرة بين سيبويه والكسائى ، وقد اشتملت تلك المناظرة على المسألة الزنبوريه التى أشتهر أمرها وذاع خبرها وذكرتها كتب النحو والتراجم ، وهاك بعض الخواطر والأفكار حول تلك المسألة من وجهة نظر لغـــوية خاصـــة .

خواطرى نحـــو المسألة الزنبوريـــة فى ضـــوء علم اللغـــة الحـــديث

المســـألة الزنبوريـــة :

كيف تقول العرب : قد كنت أحسب أن العقرب(٧٦) أشد لسـعة من الزنبور فاذا هو هى أو فـاذا هو اياها(٧٧) ؟

==

من تلقاء نفسه ، كأنما – رحمه رحمه ورثى لحاله ، فلم يشأ أن يجمع عليه الحرمان والاخفاق .

طبقات النحاة لابن قاضى شهبة /٢٠٧ ، وطبقات الزبيدى /٧٠ ، والأشباه والنظائر ٣/٨٦ .

(٧٦) يروى فى بعض الكتب « النحلة » كما فى مغنى اللبيب ١/٧٤ ووفيات الأعيان ٣/١٣٤ .

(٧٧) هذا هو المشهور فيها فى أغلب كتب النحو والتراجم وتروى بروايات تختلف عن هذا فى بعض الألفاظ مثل «فاذا الزنبور اياها بعينها» أو « فاذا الزنبور هى بعينها وليس لهذا الاختلاف أثر فى اختلاف الشاهد طبقات الزبيدى /٦٩ .

رأى سيبويه(٧٨) وجمهور البصريين يرون أن العرب لا تقول فى تلك المسألة وأمثالها الا « فاذا هو هى » بالضمير المنفصل المرفوع .

واحتج هؤلاء بأن قالوا : انه لا يجوز الا الرفع لأن « هو » مرفوع بالابتداء ولابد للمبتدأ من خبر ، وليس هاهنا ما يصلح أن يكون خبرا عنه الا ما وقع الخلاف فيه ، فوجب أن يكون مرفوعا ، ولا يجوز أن يكون منصوبا بوجه(٧٩) .

ويقول شوقى ضيف(٨٠) : « ان الحق كان فى جانب سيبويه لما يقتضيه القياس فى هذا الموضع ، ولأنه يطرد فى آى الذكر الحكيم من مثل « ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين »(٨١) « فانما هى زجرة واحدة »(٨٢) « فاذا هم حامدون »(٨٣) وكأنها هى وما بعدها مبتدأ وخبر ، أما النصب فيكون على الحالية ، وتوجيهه ضعيف » .

رأى الكسائى(٨٤) وغالبية الكوفيين :

هؤلاء يرون أنه يجوز أن تقول . « فاذا هو هى » أو « فاذا هو اياها » فهؤلاء ، أجازوا أن تأتى بالضمير المنفصل المنصوب ، ودللوا صحة قولهم بأنه من قبيل اختلاف(٨٥) اللهجات ، لانه كما ورد

---

(٧٨) انظر الأشباه والنظائر ٣/٨٦ ، والمغنى ١/٧٧ وما بعدها .

(٧٩) انظر الانصاف /٧٠٤ وحاشية الدسوقى على المغنى ١/٩٨ وما بعدها .

(٨٠) المدارس النحوية لشوقى ضيف /٥٨ .

(٨١) من الآية ١٠٨ بسورة الأعراف .

(٨٢) من الآية ١٩ بسورة الصافات .

(٨٣) من الآية ٢٩ بسورة يس .

(٨٤) الانصاف فى مسائل الخلاف /٧٠٤ والمغنى ١/٧٧ وما بعدها .

(٨٥) انظر مغنى اللبيب ١/٧٧ ، وسيبويه امام النحاة /١١٠ .

عن الأعراب أن بعضهم قال : « فاذا هو اياها » وبعضهم قال : « فاذا هو هى » وهم خليط من بنى أسـد وغيرهم من القبائل العربية المتباينة فى النطـق .

وحكى الرضى(٨٦) أن الكسائى أوجب النصب فتقول : « فـاذا هـو اياها » فقط ..

تلك هى المسألة الزنبورية التى اشتهر أمرها ، حتى درست فى أغلب كتب النحو نثرا ونظما ، وأكثروا القول فى توجيهها ، فريق أيـد وتعصب لرأى سيبويه فآزروه وناصروه واتبعوا الرأى الذى قال به ، فلم يجيزوا الا أن تقول : « فاذا هو هى » واحتجـوا لرأيه بأدلـة قوية ويبـدو فى نظرى أن غالبيـة هذا الفريق من النحاة الذين قعدوا القواعد للفصحى وهى اللغة الأدبية النموذجية الراقية لغة الخاصـة من الأدبـاء والشـعراء والحكام .

وفريق أيد الكسائى وأجازوا الوجهين : « فاذا هو هى » و «فاذا هو اياها » ويبدو لى أن غالبية هذا الفريق من اللغويين الذين تعرضوا لدراسة اللهجات العربية أكثر مما تعرض له فريق النحاة الذى اهتـم بوضع قواعد اللغة الأدبية الفصحى فقط .

وهنا نسأل أنفسنا أننتصر لسيبويه على الكسـائى أحـد أئمـة القراءات الذين ارتضت الأمة أمانتهم ووثقت فى رواياتهم وعلمهم(٨٧) أم ننتصر للكسائى على سيبويه فى مسألة اشتهر القول فيها بقـوة حجته وصواب رأيه ، مع نزعمه لمدرسة البصرة فى عصره ، فلقد صـنع

---

(٨٦) حاشية الأمير على المغنى ١/ ١٤٠ .

(٨٧) انظر منجد المقرئين /١١٣ ، والابانة /٨٦ ، ٨٧ .

سيبويه ما لم يسبقه أحد ، حتى ليعد بحق أستاذه الأشهر وإمامه المقدم ، ويعد كتابه فيه معيار العربية وكنزا من كنوزها الزاخرة وقد عرف العلماء فضله وأكبروه في اللغة مكانته ، وأولوا الكتاب حقه من الدرس والبحث والنقد والتأليف(٨٨) .

الاجابة : رأى خاص

لو نظرنا الى المعنى المراد في مثال المسألة الزنبورية السابق لما ناصرنا هذا على ذاك ، ولما وجدت روح التعصب أو الجدل والخصام ولحل الاشكال والنزاع بين المدرستين : مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة .

فنحن نقول : ان كيفية نطق المثال السابق يتبع المعنى المراد ، فالذى يريد أن يخبرنا ويقول لنا : ان شدة اللسع من العقرب وشدة اللسع من الزنبور قد أتحدتا وتساوتا حتى كأنه لا تشبيه بينهما يقول وينطق المثال هكذا — كما يريد منا سيبويه ومن شايعه أن ننطقه — : « قد كنت أحسب أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذا هو هى » بضمير الرفع المنفصل ، وذلك لأنه لم يرد معنى التشبيه على الاطلاق .

ويبدو لى أن هذا المعنى هو الذى أراده سيبويه ومن وافقه ذلك لأننا نراهم يحتجون بقوله — تعالى — : « فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين »(٨٩) وقوله : « ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين »(٩٠) وقوله : « فألقاها فاذا هى حية تسعى » (٩١) .

---

(٨٨) سيبويه امام النحاة /٦ .

(٨٩،٩٠) الآية ١٠٧ ، ١٠٨ بسورة الأعراف .

(٩١) الآية ٢٠ بسورة طه .

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يخبرنا فى تلك الآيات بأن عصا سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ قد صارت حية حقيقية تسعى بين القوم ، ولم يرد الحق ـ سبحانه ـ أن يخبرنا بأنها قد صارت شبيهة بالحية، بل هى حية حقيقية تتحرك وسط قوم فرعون السحرة « تلقف ما يأفكون »(٩٢) لأنه لو لم تكن العصا حية حقيقية لما آمن سحرة فرعون ، وتلك قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ تجلت للاعجاز ، تأييدا لرسوله موسى ـ عليه السلام •

والكلام فى الآيات حينئذ على سبيل الحقيقة ، و يمكن أن يكون من باب التشبيه البليغ ، لانعدام الشبه على الاطلاق ، لأنها صارت حية حقيقية •

أما فى المسألة الزنبورية ـ على ما قررناه ـ سابقا فهو من قبيل التشبيه البليغ ، لغياب وجه الشبه وأداة التشبيه ، ووقوع المشبه به خبرا عن المشبه وهو عند بعض علماء البلاغة ، والحال هذه ـ يعد من قبيل الاستعارة الأصلية التصريحية(٩٣) •

ولنعد الى المعنى فى المثال مرة أخرى ، فنقول أما الذى يريد أن يخبرنا بهذا المثال ويعلمنا أن الزنبور شديد اللسعة ، يشبه العقرب فى تلك الشدة ـ فانه يقول هكذا : « قد كنت أحسب أن العقرب أشد لسعة من الزنبور ، فاذا هو اياها ؟ بالضمير المنفصل المنصوب ، وكأن الكلام قبل الحذف من المثال : « فاذا هو يشابهها » ادعى قوة الشبه ، فحذف الأداة ، وهى كلمة «يشابه » فانفصل الضمير فجاء

---

(٩٢) من الآية ٤٥ بسورة الشعراء •

(٩٣) انظر التشبيه البليغ /٩ للدكتور عبد العظيم المطعنى ، والمثل السائر ج ١/٣٩٠ •

منتصبا بفعل محذوف على المفعولية(٩٤) ، والفعل المحذوف هو خبر المبتدأ « هو » أو يقدر المحذوف بمثل : « فاذا هو يلسع لسعها » وعلى هذا فالضمير ناب عن مفعول مطلق فلملاحظة الشبه السابق بينهما روعى ما تقتضيه أداة التشبيه من مجيء الضمير منفصلا منتصبا لحذفها .

فبهذا الرأى يكون الفريقان على صواب ، لأن كلا منهما راعى معنى غير المعنى الذى أراده الآخر .

فان قلت : ان الكسائى أجاز القول بالوجهين السابقين ولم يمنع أحدهما .

الاجابة

هنا أقول : انه ليخيل الى أن الزنابير الموجودة ببيئة البصرة أقوى لسعا من الزنابير الموجودة فى بيئة بغداد ، لأن بيئة البصرة أقرب الى الصحراء والبداوة من بيئة بغداد ، عاصمة الخلافة الاسلامية العباسية المتحضرة ، وحشرات الصحراء والبادية أقوى أبدانا وأشد ايذاء من حشرات البيئات المتحضرة .

وهذا مشاهد معلوم فى حياتنا ، حتى ان المستأنس اذا ذهب الى الجبال استأنسه ، وضعف أنسه ، بل هو ملحوظ فى جنس البشر — أيضا — فرجال البادية والصحراء أشد خشونة وأقوى أبدانا ، وأصح من رجال الحضر والمدن ، لعدم فساد أطعمتهم وبيئتهم لقربهم من الفطرة الربانية وهذا مما قرره ابن خلدون فى مقدمته(٩٥) .

نرجع فنقول : ان سيبويه البصرى قد لاحظ ما تقضيه بيئته

---

(٩٤) انظر مغنى اللبيب /٩١ ، وشذرات الذهب ١/٢٥٣ .

(٩٥) انظر مقدمة ابن خلدون /٨١ وما بعدها .

البدوية من معنى وما سمعه من أعراب البادية ، وهذا المعنى هو شده اللسع حتى انك لا تجد فرقا بين لسع الزنابير ولسع العقرب وهذا المعنى لا يتأتى الا اذا قلت : « فاذا هو هى » فلم يجز سواه يؤيد هذا قول سيبويه — معارضا الكسائى — : « أما عرب بلدنا فلا تقول الا هو هى »(٩٦) كما نعرف ، ان سيبويه لا يحتج الا باعراب البادية الفصحاء .

أما الكسائى الذى قد نشأ فى الكوفة ، وهى الى البادية أقرب مثل البصرة ، وسكن بغداد بيئة الحضارة والتمدن — فقد لاحظ المعنيين : معنى سيبويه السابق الذى تقتضيه بيئة البادية والمعنى الثانى ، وهو أن اللسع يشابه للسع العقرب ، فقد لاحظه أيضا — لأن بيئة بغداد الحضارية تقتضيه .

ولذلك فنحن نرى أن كلا الفريقين قد أصاب ، ولهذا السبب نفسه نقول : ان الأعراب الذين حكموا فى المسألة قد اختلفوا فى النطق وماذلك الا لاختلاف بيئاتهم واختلاف قبائلهم .

وانه ليخيل الى أن الأعراب الذين قالوا : « فاذا هو هى » من الأعراب الذين لم يتأثروا ببيئة بغداد لعدم طول مكثهم لها ، أما الذين قالوا : « فاذا هو اياها » فقد مالوا الى الحضارة لطول مكثهم ببغداد ، كأعراب الحطمة(٩٧) الذين سكنوا بالقرب من بغداد ، ولذلك فسيبويه

---

(٩٦) انظر طبقات الزبيدى /٦٩ .

(٩٧) الحطمية بالضم ثم الفتح ، وكسر الميم ، وياء مشددة ، هى قرية على فرسخ من بغداد من الجانب الشرقى من نواحى الخالص ، منسوبة الى السرى بن الحطم والحطم فى اللغة الرحل القليل الرحمة ، وهو من الحطم بمعنى الكسر ، وتنسب الى تلك القرية الدروع الحطمية وتمتاز بأنها ثقيلة عريضة .

انظر معجم البلدان ٢/٢٧٢ .

يعارض هذا القول ويقول : « اما عرب بلدنا فلا تقول الا هو هى » وهم عرب البادية الذين يحتج بهم سيبويه ، ولا يجيز الاحتجاج بأعراب الحطمة الذين قد لان جلدهم وفسد لسانهم ببيئة الحضارة والمدنية فى بغداد .

فان قلت : يبدو مما سبق — اذن — أن للبيئة أثرا فى اللغة والكلام فهل يعد الاختلاف السابق فى نطق المثال : « فاذا هو هى » أو « فاذا هو اياها » من قبيل اختلاف اللهجات أو اختلاف البيئات .

الاجابة

أقول : ان الاجابة على السؤال السابق هو ان الاختلاف فى نطق المثال السابق يعد من قبيل اختلاف اللهجات واختلاف البيئات ، وذلك لأن القبيلة التى سكنت البادية وتأثرت بها وشاهدت وعرفت نوع حيواناتها وحشراتها تقول : « فاذا هو هى » ، والقبيلة التى سكنت البيئة الحضرية ، وعرفت حيواناتها المستأنسة وحشراتها تقول : فاذا هو اياها » .

وهنا يظهر تمسك سيبويه برأيه لأنه كان لا يرى أفصح ولا أصوب من لغة البادية الذين ترتضى عربيتهم ، وهم الذين يقولون : فاذا هو هى ، بحسب التفسير السابق ، والكسائى أجاز الوجهين السابقين ، لأنه كوفى مكن بغداد ، فتأثر بالبيئتين : البدوية والحضرية ، وسمع اقوال لهجات البيئتين ، فأجازهما ، وذلك كما هو مقرر فى علم اللغة الحديث أن اللغة تتغير تبعا لتغير ظواهر الاجتماع(٩٨) .

---

(٩٨) انظر علم اللغة بين القديم والحديث /٨٢ للدكتور عبد الغفار حامد هلال .

يقول الدكتور شوقي ضيف عن الكسائي : « حقا انه توسع في القياس ، فلم يقف به عند الشائع المستعمل على الألسنة ، ولا عند أعراب البدو ، بل مده ليشمل ما ينطق به العرب المتحضرون ممن يمكن أن يكون قد دخل اللحن على ألسنتهم في رأي البصريين ، ولعله من أجل ذلك ألف كتابه في لحن العوام ، ليدل على أنه كان يفرق بين لغات العرب وبين هذا اللحن ، وأهم من ذلك أنه مد النحو ليشمل الشاذ والنادر من تلك اللغات مما لم يكن سيبويه والخليل يحفلان به ولا يريان له قدرا »(٩٩) .

يتأكد لدينا ذلك اذا علمنا أن نحويي الكوفة — كما هو مقرر في مذهبهم — يقيسون على كل ما يسمعون ولو كان مثالا واحدا(١٠٠) .

فان قلت : انه يبدو من تحليلك وعرضك المثال السابق الذي أختلف فيه الاعراب تبعا لاختلاف المعنى -- أنك تقول بأن الاعراب فرع المعنى(١٠١) .

أقول : نعم ، وليس ذلك على اطلاقه ، ولكن باعتبار خاص ، فنحن اذا عرفنا أن قضية التكلم تقتضي متكلما وألفاظا متكلما بها حامله — مثلا — ضوت الضمة أو الفتحة أو الكسرة ، ومستمعا لتلك الألفاظ .

فالمتكلم هو الذي يدرك المعنى الذي يريد أن يقوله للمستمع أولا فيتفوه له به ضابطا كلامه بحسب ما يريد من معنى فانه اذا رأى زيدا

---

(٩٩) انظر المدارس النحوية /١٧٦ .

(١٠٠) انظر مدرسة الكوفة /٣٧٦ .

(١٠١) انظر مبحث صلة الاعراب بالمعنى في كتاب « من قضايا اللغة والنحو » /١١ وما بعدها واللغة الشاعرة /٢٣ وما بعدها .

يضرب عمرا مثلا: فانه يقول : ضرب زيد عمرا ، فهنا نقول : ان الاعراب فرع المعنى ، والمعنى أصل وسابق عليه فى ذهن المتكلم •

واذا استمع المستمع لكلام المتكلم فهم كلامه بحسب الضبط الاعرابى الذى سمعه أى يحصل فهم المعنى لديه بعد أن تقرع الألفاظ بأصواتها الاعرابية آذانه فهذا نقول له : المعنى فرع الاعراب •

وهذا أمر يتضح بامعان الفكر وتدقق النظر ، ويزيد وضوحا اذا قلنا : ان المعنى فى ذهن المتكلم به ، سابق لوجود الألفاظ والأصوات فى الخارج ، والالفاظ حاملة لعلامات الاعراب ملازمة لها ، فهو يضبط كلامه وألفاظه بحسب ما أستقر فى ذهنه من معنى ، وما هو بصدد اعلامه للمستمعين ، ونحن لا نعلم هذا المعنى الذى يقوله الا بعد التلفظ ، لأننا لو قلنا اننا نعلم بمعانى المتكلم قبل أن يلفظ بالكلام للزم — بناء على ذلك — أننا نعلم بما فى الضمائر ، وذلك ما لا يعلمه الا الله سبحانه وتعالى — « فانه يعلم السر وأخفى »(١٠٢) « والله عليم بذات الصدور »(١٠٣) •

الاحتكام الى الأعراب فى نظر علم اللغة الحديث

يؤيد علم اللغة الحديث الاحتكام الى الأعراب فى المسائل اللغوية فى الألفاظ والتراكيب موضوع البحث اللغوى ، فهم الفيصل فى تلك المسائل فالكسائى لم يجانب الصواب حين طلب هؤلاء الأعراب للفصل فى المناظرة بينه وبين سيبويه ، وذلك بقوله حين طلب منه الوزير البرمكى يحيى بن خالد من يحكم بينهما — : « هذه العرب ببابك »

---

(١٠٢) من الآية ٧ بسورة طه •

(١٠٣) من الآية ٤ بسورة التغابن •

قد جمعتهم من كل أوب ، ووفدت عليك من كل صقع ، وهم فصحاء الناس ، وقد فنع بهم أهل المصرين ، وسمع أهل الكوفة ، وأهل البصرة منهم فيحضرون ويسألون(١٠٤) .

فالكسائى بهذا الطلب لم يخالف المنهج اللغوى الحديث الذى يقرره ويقره علم اللغة ، ولكن علم اللغة الحديث يضع ضوابط وشروطا يجب توافرها فى عملية التحكيم هذه أدى أن علماء البصرة قد توصلوا اليها وطالبوا بتطبيقها من هذه الضوابط .

١ — عدم تعصب هؤلاء الأعراب وعدم التحيز لأحد المتناظرين أو المصرين .

٢ — أن ينطقوا على سجيتهم وفطرتهم التى اعتادوا عليها فى النطق فلا يقصروا على نمط معين مضطرين اليه أو يكون نتيجة تلقين سابق على هذا التحكيم .

٣ — أن يكون هؤلاء الأعراب من بيئة لغوية واحدة لأن من شأن اختلاف البيئات أن يؤدى الى اختلاف اللغات كما هو مقرر فى علم اللغة الحديث(١٠٥) .

٤ — عدم ميل هؤلاء الأعراب لأحد المتناظرين بسبب جاهه وقربه من الخليفة أو الوزير .

٥ — عدم المغالطة فى التحكيم بأن يكون متولى الحكم على هؤلاء الأعراب يقظا أمينا على دراية بفن اللغة والكلام .

---

(١٠٤) انظر الأشباه والنظائر ٣/٨٥ ، ٨٦ ، وطبقات الزبيدى /٦٩

(١٠٥) انظر علم اللغة بين القديم والحديث /١٤٥ تأليف د/ عبد الغفار حامد هلال .

هذه بعض الشروط والضوابط التي يجب تحققها فى الاحتكام الى الأعراب لكن هذه الشروط يرى جمهور البصريين ــ مناصرة لسيبويه البصرى ــ أنها لم تتحقق فى تلك المناظرة بين سيبويه والكسائى ، ولذلك فهم يقولون ببطلان تحكيم هؤلاء الأعراب فى المسألة الزنبورية للاسباب الآتية :

السبب الأول : تعدد قبائل الأعراب وتعدد بيئاتهم

يروى أن هؤلاء الأعراب الذين احتكم اليهم الكسائى لم يكونوا من قبيلة عربية واحدة أو من بيئة لغوية واحدة بل كانوا من قبائل عدة وبيئات متعددة ، حضرت من كل أوب ووفدت من كل صقع كما يقول الكسائى .

فمن هؤلاء الأعراب الذين حضروا تلك المناظرة :

١ ــ أبو الجراح العقيلى من قبيلة عقيل(١٠٦) .

٢ ــ ابو فقعس الأسدى من قبيلة أسد(١٠٧) .

---

(١٠٦) نسبة الى عقيل بن كعب ، بطن من عامر بن صعصعة ، من قيس عيلان من العدنانية ، وتنسب الى تلك القبائل العديد من الظواهر اللغوية المخالفة للغة الفصحى الأدبية .

معجم قبائل العرب ٢/٨٠١ .

(١٠٧) هو بنو أسد بن خزيمة ، قبيلة عظيمة ، من العدنانية ، وهى ذات بطون كثيرة كانت منازلهم بنجد ثم بعد الاسلام تفرقوا من بلاد الحجاز على الأقطار ، فنزلوا العراق وغيرها ، وهى من القبائل التى اعتمد اللغويون الرواية عنها لفصاحتها ، ومآثرها وأخبارها كثيرة فى الجاهلية والاسلام فى الحرب والسلم . معجم قبائل العرب ١/٢١ ، وأنساب العرب ١٩٠ .

٣ ــ أم الهيثم(١٠٨) الأعرابية من بنى منقر(١٠٩) ٠

٤ ــ أبو زياد الكلابى من بنى كلاب(١١٠) ٠

٥ ــ أبو مروان العكلى من بنى عكل(١١١) ٠

٦ ــ أبو دثار الفقعسى من بنى فقعس(١١٢) ٠

كما يروى بعض البصريين أن الأعراب الذين احتكم اليهم فى هذه المناظرة كانوا من عرب الجاهلية الذين نشأ فيهم الكسائى وروى عنهم والبصريون لا يقولون بفصاحتهم ، ولا يجيزون الأخذ عنهم والاستدلال بمنطقهم بسبب نزولهم بالقرب من بغداد ٠

---

(١٠٨) هى غنية أم الهيثم راوية أهل البصرة ، وقد روى عنها كثير من العلماء مثل أبى عبيدة وقد زارها فى مرضها وهناك أم الهيثم الكلابية راوية أهل الكوفة المروى عنها المبرد وهى بعد أم الهيثم البصرية ٠ الفهرست /٧٠ والأعراب الرواة /٢٦١ ٠

(١٠٩) هم من القبائل المشهورة بالحسب والنسب والفصاحة والبيان وينسبون الى منقر بن عبيد بن مقاعس وهم بطن من تميم ، كانت لهم أيام مشهورة ، أنساب العرب /٢١٦ وعجالة المبتدى /١١٦ ٠

(١١٠) هم بنو كلاب بن ربيعة بطن عظيم من العدنانية ، كانت ديارهم حمى « كليب » وحمى الربذة وفدك وغيرها ثم انتقلوا بعد ذلك الى الشام وكان لهم فى الجزيرة القراتية صيت ثم ضعفوا وملكوا حلب ونواحيها٠ معجم قبائل العرب ٣/٩٨٩ ٠

(١١١) عكل بضم العين وسكون الكاف : بطن من طانجة العدنانية، وعكل اسم امرأة حضنت بنى عوف بن وائل ٠ معجم قبائل العرب ٢/٨٠٥

(١١٢) بنو فقعس : بطن من بنى أسد وهم بنو فقعس بن طريف ابن عامر انظر معجم قبائل العرب ٣/٩٢٥ وأنساب العرب /١٩٥ ٠

فقد روى الأصمعى(١١٣) أن الكسائى أخذ اللغة عن أعراب الحطمية ينزلون بـ « تطربل »(١١٤) فلما ناظر سيبويه الكسائى استشهد بلغتهم عليه ، فقال أبو محمد اليزيدى :

كنا نقيس النحو فيما مضى
على لسان العرب الأول (١١٥)
فجاء أقوام يقيسونه
على لغى أشياخ قطربل
فكلهم يعمل فى نقض ما
به نصب الحق لا يأتلى
ان الكسائى وأصحابه
يرتون فى النحو الى أسفل

يقول الدكتور شوقى ضيف : « وكان سيبويه ونحاة البصرة يهدرون ما يجرى على لسان عرب الحطمة ، لما دخل على سلائقهم من ضعف بسبب اقامتهم فى الحاضرة ، بل لقد كانوا يهدرون ما جاء على ألسنة بعض البدو من لغات شاذة لا تجرى مع القياس المستنبط

---

(١١٣) انظر طبقات المفسرين ١/٤٠٦ ، ومعجم الأدباء ١٣/١٨١ ، وبغية الوعاة ٢/١٦٣ .

(١١٤) قطربل بضم القاف وسكون الطاء وفتح الراء وباء موحدة مشددة مضمومة ـ قرية بين بغداد وعكبرا ينسب اليها الخمر ، وقد أكثر الشعراء من ذكرها ، وقيل : هى كورة بجوار بغداد .
معجم البلدان ٤/٣٧٠ .

(١١٥) الأبيات من بحر السريع ، راجع الأبيات فى طبقات المفسرين ١/٤٠٦ ، وبغية الوعاة ٢/١٦٣ ، وأخبار النحويين البصريين /٣٥ ، ومعجم الأدباء ١٣/١٨١ .

من كثرة ما يدور على ألسنة الفصحاء كالجر بـ « لعل » ، والجزم بـ « لن » ولابد أن سيبويه شرح فى ذلك فى حواره ومناظرته مع الكسائى وان كان الرواة للحادثة لم يدونوه »(١١٦) .

واذا ثبت أن هؤلاء الأعراب كانوا من قبائل عدة وبيئات متعددة فمن المقرر فى علم اللغة الحديث أن يختلفوا فى النطق وتتباين ألسنتهم

ولذلك فان علم اللغة الحديث يؤيد ما روى من أن بعض (١١٧) الأعراب قال حين طلب منه كيفيه القول فى المسألة الزنبورية : « فاذا هو هى » وبعضهم قال : « فاذا هو اياها » .

ولبيت هؤلاء الأعراب كانوا من قبيلة واحدة وبيئة لغوية معروفة فيأخذ نطقهم شكلا واحدا وصورة لغوية واحدة ، فكنا نعرف وجه الصواب بين المتناظرين أو المتخاصمين .

فوق هذا فان كثيرا من البصريين يشكون فى فصاحة هؤلاء الأعراب الذين طلبوا للتحكيم بسبب طول مكثهم فى الحضر ، رغبة فى رغد العيش حيث بلاط الخلفاء والامراء ومجالس العلماء ، فالعلماء فى بادىء الأمر كانوا يذهبون اليهم فى بواديهم وبيئاتهم ، بل أحيانا يتعلقون بالأعراب اذا عثروا بهم فى طريقهم ، وأخذوا يتحدثون معهم ، بل ربما اخذ الحديث معهم شكل المحاورة أو المشافهة أحيانا ، لا رغبة فى ذلك، ولكن لحمل الأعرابى على الكلام للافادة بنطقه وطريقة قوله(١١٨) .

ولكن الأعراب تغيرت حالتهم وتركوا أوطانهم وبواديهم مهد الفصاحة والبيان ، وانتقلوا الى الحاضرة حيث الخلفاء الوزراء والعلماء

---

(١١٦) المدارس النحوية /٥٩ .

(١١٧) الانصاف ٢/٧٠٤ .

(١١٨) رواية اللغة /٦٩ ، والأعراب الرواة /١٠٠ .

لعرض بضاعتهم من الكلام ، لما عرفوا احتياج علماء اللغة اليهم بكثرة .

السبب الثاني : تلقين الكسائي الأعراب ما يريد

يرى فريق من البصريين أن الكسائي كان يلقن الأعراب مايريد حتى يحكم لرأيه بالصواب اذا احتكم اليهم .

قال أبو الطيب اللغوي(١١٩) : « حدثنا أبو حاتم قال : لم يكن لجميع الكوفيين علم بالقرآن ولا كلام العرب ، ولولا أن الكسائي دنا من الخلفاء فرفعوا من ذكره لم يكن شيئا ، وعلمه مختلط بلا حجج ولا على الا حكايات عن الأعراب مطروحة ، لأنه كان يلقنهم ما يريد » .

نعم نحن نخالف أبا حاتم فى قوله هذا فصفة التعصب فيه ظاهرة وكأنه يريد أن يغض من قدر الكسائي الكوفي الذى انتصر ـ بغير حق ـ على سيبويه زعيم المدرسة البصرية .

هذا وان كنا نرى أن الدنو من الخلفاء والرؤساء وذوى الجاه والسلطان يرفع من ذكر العالم ويزيد فى شهرته أكثر من هؤلاء العلماء الذين لم يدنوا من الخلفاء والأمراء وأصحاب الجاه ، فالقرب من هؤلاء ـ لا شك ـ يساعد فى تلك الشهرة وذيوع الصيت .

أما هؤلاء الذين لم يكن لهم اتصال بالخلفاء وذوى الجاه فبعضهم نقل شهرته ويضعف صيته ، فكم من علماء فى الأمصار الاسلامية فى القرون الأولى على درجة علمية عالية ـ لم نسمع من أخبارهم شيئا ، ولم يشتهروا بسبب عدم انتقالهم من بلدانهم ، وعدم اتصالهم بذوى الجاه والسلطان ، وعدم اختلاطهم بأحداث العصر .

---

(١١٩) مراتب النحويين /١٢٠ ، ومعجم الأدباء ١٣/١٩٠ والمزهر ٢/٤١٠ .

وبعض هؤلاء العلماء يشتهر أمره ويذيع صيته بسبب قوته العلمية وتمكنه أو لأسباب وأحداث أخرى ، كما رأينا أن الخليل بن أحمد يشتهر أمره ، وان كان رفض الذهاب لوالى الأهواز : سليمان بن على الذى أرسل اليه رسولا ، يدعوه لزيارته ، ورفض تلك الزيارة(١٢٠) .

والمهم أن القرب أو عدم القرب — ايضا — لا يدلان على جهل صاحبه وعدم تمكنه من العلم .

وحول تلقين الأعراب يجول فى النفس هذا السؤال وهو ما رأيك فى تلقين الأعراب لما يراد منهم ؟ أينطقونه كما أريد منهم أم يعجزون عن ذلك التلقين كالذى وقع مع أعرابى ابن جنى حينما(١٢١) قال له كيف تقول : ضربت أخوك ؟ فقال : أقول : ضربت أخاك فداره على الرفع فأبى ، وقال . لا أقول : أخوك : أخوك أبدا فقال له كيف تقول : ضربنى أخوك ؟ فرفع فقال له : ألست زعمت أنك لا تقول أخوك أبدا ؟ فقال : ايش اختلفت جهتا الكلام .

ومثله ما رواه ابن جنى(١٢٢) عن أبى حاتم سهل بن محمد السجستانى فى كتابه الكبير فى القراءات قال : « قرأ على أعرابى بالحرم « طيبى لهم وحسن مآب »(١٢٣) فقلت : « طوبى » فقال : « طيبى » فلما طال على فمت : طو طو قال طى طى » .

وإننا حينما نرى أن البصريين يتهمون الكسائى بتلقين الأعراب ما يريد فان هذا يدخل فى طيات اعتراف البصريين بجواز التلقين وقبول

---

(١٢٠) انظر أخبار النحويين البصريين /٣١ .
(١٢١) انظر الخصائص ١/٧٦ .
(١٢٢) المرجع السابق ١/٧٦ .
(١٢٣) من الآية ٢٩ بسورة الرعد .

الاعرابى له ، فهو ينطق ما يراد ولا يعجز عنه ، ومن يعترف بقبول الانسان وقدرته عليه يحمل هذا الاعتراف أن اللغة تكتسب بالتلقين منذ الصغر وليست أمرا سحريا ، فاللغة عادة مكتسبة كما يقرر علم اللغة الحديث وكما قرر من قبل ابن فارس حيث قال(١٢٤) : « باب القول فى مأخذ اللغة : تؤخذ اللغة اعتيادا كالصبى العربى يسمع أبويه وغيرهما ، فهو يأخذ اللغة عنهم على مر الأوقات ، وتؤخذ تلقنا من ملقن وتؤخذ سماعا من الرواة الثقات ذوى الصدق والأمانة .

فابن فارس يقرر حقيقة هامة فى علم اللغة وهو أن اللغة عادة مكتسبة على مر الأوقات ، وهو يقرر — أيضا — عملية التلقين اللغوى، ولو كان الانسان كبيرا ، وبهذا يمكن أن نرد على الدكتور ابراهيم أنيس الذى يقرر أن اللغويين القدامى « من علماء العربية فقد سيطرت عليهم فكرة أخرى ورأوا أن الكلام بالعربية يرتبط ارتباطا وثيقا بالجنس العربى واذا ينكرون على الفارسى أو اليونانى امكان اتقان اللغة ، كما يتقنها أهلوها من العرب ، مهما بذلوا فى تعلمها ، وثابروا فى المران عليها بل يظلون فى رأيهم أجانب عن اللغة ، كما هم أجانب عن الجنس العربى فكأنما تصور هؤلاء الرواة أن هناك أمرا سحريا يمتزج بدماء العرب ويختلط برمالهم وخيامهم ، وهو سر السليقة اللغوية يورثه العرب لأطفالهم ، وترضعه الأمهات لأطفالهن فى الألبان »(١٢٥) .

فما يلبث رائد اللغويين المحدثين الدكتور / ابراهيم أنيس — رحمه الله — يقول هذا حتى يردده من بعده جمهور اللغويين المحدثين فى مؤلفاتهم وكأنه حقيقة مقررة لا مجال للطعن أو الاجتهاد فيها .

---

(١٢٤) انظر الصاحبى فى فقه اللغة /٤٨ ، والمزهر ١/٥٨ .
(١٢٥) انظر الكتاب « من أسرار اللغة » /٣٦ .

فهؤلاء البصريون فى انهامهم الكسائى بتلقين الأعراب ما يريد يتضمن اتهامهم هذا الاعتراف بالتلقين والاكتساب والتأثر بالآخرين أليس رفضهم الاستشهاد بشعر عدى بن زيد الايادى الذى جاور الفرس وعاش بين ظهرانيهم — دليلا على تأثر هذا العربى الصليبة واكتساب تراكيب وظواهر لغوية تحالف النمط اللغوى العربى الأصيل ان اعتراف القدامى بمثل هذا يدل على ايقانهم بأن اللغة مكتسبة وأنها عادة وظاهرة اجتماعية خالصة •

كما نراهم يشيرون الى لكنه صهيب(١٢٦) الرومى لأنه أسر صغيرا وربى فى بلاد الروم ، وهو عربى الجنس ، فكأنهم بهذا يقولون : ان الانسان ابن بيئته يتأثر بها ويتفاعل معها ، فلو أن طفلا عربيا ولد فى « لندن » مثلا ، ونشأ بها لاعتاد واكتسب اللغة الانجليزية لغة لسان له ولا تستطيع أن تفرق بينه وبين جنسية الانجليز فى طريقة النطق •

هذا واننا نراهم حين يفاضلون بين القبائل فى الأخذ والتلقى عنهم والاستشهاد بأقوالهم كان أساس هذا التفاضل القرب أو البعد عن الأمم المجاورة والعزلة وشدة الاختلاط ؛ ولم يكن لنسب القبيلة دخل فى هذا التفاضل وذلك التقسيم ، أبعد ذلك نقول ان القدامى كانوا يقولون ان اللغة ترتبط بالجنس العربى ارتباطا وثيقا •

فوق هذا أننا نراهم فى كثير من شواهدهم اللغوية تنسب لشعراء من غير الجنس العربى ، وان كانت النشأة والبيئة عربية ، فعنصر

---

(١٢٦) هو صهيب بن سنان بن مالك من بنى النمر بن قاسط ، صحابى وهو أحد السابقين الى الاسلام أغارت الروم على مساكنهم فسبوه وهو صغير فنشأ ألكن ، واشتراه من الروم أحد بنى كلب وقدم به مكة فاعتقه عبد الله بن جدعان وهو بدوى توفى سنة ٣٨هـ انظر حلية الأولياء ١٥١/١ ، والاصابة ٤٤٩/٢ ، والأعلام ٢١٠/٣ •

المنسب لم يدخل — أساسا — فى الاعتبار عند جمع اللغة والاستشهاد

ولكن لو عدنا الى أعرابى أبى حاتم الذى لم يكن يقبل ما يلقنه أستاذه له لوجدنا أباحاتم يناقض نفسه فى قوله : ان الكسائى كان يلقن الأعرابيما يريد ، كيف يستطيع أن يلقنهم الكسائى وتعجز أنت عن ذلك التلقين اللهم ان كان هذا الاتهام تعصبا ضد الكسائى الكوفى وتحاملا عليه ولكن نحن نود أن نفصل القول فى عملية التلقين هذه لا نتهم أبا حاتم بعدم معرفته بأساليب التلقين وقوانينه ونصف الكسائى بتمكنه من تلك القوانين فأقول :

ان الشىء المراد تلقينه للأعرابى أو غيره اما أن تكون القوانين الصوتية تأباه للتقارب الشديد(١٢٧) فى مخرج الحروف أو اتحاده أو التباعد الشديد أو لا تأباه القوانين لعدم ذلك :

فان كانت تأباه عسر التلقين على الأعرابى ، بل على غيره — وهما فى ذلك سواء — كان تطلب النطق منه بمثل هذه الألفاظ التى تقاربت مخارجها « هعح — حعح » ولتكن ساكنة حتى لا تبتعد الحروف بصوت الحركة فتباعد بين المخرجين ، وهذا هو السر فى اهمال أمثال تلك المواد فى معجم الخليل ابن احمد والفراهيدى الذى سار فيه صاحبه على طريقة التقليبات الصوتيه وكنزت فيه تلك الأمثلة المهملة أو عديمة الاستعمال .

وان كان هذا الشىء المراد تلقينه لا تأباه القوانين الصوتية سهل عليه نطقه وحاكاك فيه أيها الملقن له ، الا أن يكون هناك عيب خلقى فى أعضاء نطق الأعرابى أو الانسان الملقن — بفتح القاف اسم مفعول» .

---

(١٢٧) قال الخليل بن أحمد فى معجم العين جـ ٦٨/١ : « ان العين لا تأتلف مع الحاء فى كلمة لقرب مخرجيهما » وراجع تفصيل ذلك بكتاب « الأصوات اللغوية » للدكتور / ناجح عبد الحافظ مبروك /٢٦٨ ومابعدها (٦ - ٣٤)

ولنضرب لذلك مثلا وهو ما لامسته بنفسى وحدث مع أحد أقاربي وهو صبى دون العشر قلت له يوما قل : يا حال عندك ملوخية فقال : يا حال عندك ملوخية — بالجاء المهملة فى اللفظين فأعدت عليه فعاد الى ما نطق به أولهما ، فأعدت عليه ثالثة فلم يستطع أن ينطق بالجملة السابقة على ما أردت منه ، فأيقنت أن به عيبا خلقيا كسدة لحمية لاسيما فى نطقه مخرج الخاء تجعله لا يستطيع أن ينطق بذلك الصوت على الاطلاق ، ومثله كمثل الألثغ الذى لا يستطيع أ ن ينطق صوت الراء فمثل هذا لا تستطيع أن تروضه على النطق بمثل هذه الألفاظ ولو بلغت ما بلغت من تكرار التلقين فى أزمان متعددة لأنه أمر فطرى خلقى لايمكن التخلى عنه ولا دخل للملقن فيه ولا قدرة له على تغييره .

ونرجع ثانيا الى الشيء الذى لا نأباه القوانين الصوتية مع طفل سليم من العيوب الخلقية فى جهازه الصوتى بخاصة لأنه هو الذى يعنينا فى مثل هذا المقام ، هذا الطفل السليم ينطق بما تريد منه ويحاكيك فيه فان قلت له : قل : يا خال لقال ذلك ولو قلت قل « ملوخية » مثلها لقال لك ما طلبت منه ولا يعجز عن مثل ذلك التلقين، لأن اللغة ما هى الا محاكاة(١٢٨) للأصوات التى قرعت الأذان الانسانية فى القديم والحديث من الآباء ومعاصريهم ، الى الأبناء ومعاصريهم .

فهذا غلام أبى حاتم لو قلت له قل : طوبى لقالها ، ولما عسر عليه ذلك ، واو قلت له قل : طو طو لقال ما طلبت منه ، ولا يعجز عن ذلك وليس كما زعم أبو حاتم ، أما سبق أن قال — ذلك الأعرابى — يوما ما — مثلا طوبة — طور — طول — فالذى نطق بالمقطعين السابقين فى هذه الكلمات لا يعجز — عقلا — أن ينطق بأحدهما .

---

(١٢٨) انظر دلالة الالفاظ /٢١ للدكتور ابراهيم أنيس .

ألا ترى أننا لو ذهبنا به الى بلاد العجم ليتعلم لغتهم أيتعلمها أم لا يتعلمها ؟

الجواب : نعم يستطيع أن يتعلمها ، فاذا كان من الجائز أن يتعلم لغة كاملة ، أفيعجز أن يتعلم وينطق بلفظ هو من صميم لغته •

ان أعرابى أبى حاتم لو جاء أستاذه الأعجمى ، وقال له • قل : twotwo أو to-to النطق مرددا ذلك وراءه ، أفلست ترى معى قرب لفظ أبى حاتم « طو — طو » بلفظ الأستاذ الأعجمى السابق •

ان الصبيان والتلاميذ فى المكاتب القرآنية يتقنون القرآن الكريم — مما تلقوه عن أستاذهم ومعلمهم — بلغته الفصحى التى أنزله الله سبحانه وتعالى — بها ، ومع ذلك يتكلمون فى أحوالهم الأخرى بلهجات أقوامهم ، فكيف يعقل أن يعجز غلام أبى حاتم وأمثاله عن تلقين أستاذه بما غاير لغته •

واذا عجز أبو حاتم عن تلقين أعرابية ، فلم لم يعجز الكسائى عن تلقين الأعراب الذين حضروا فى المسألة الزنبورية ، فكيف تقرر يا أبا حاتم وتعترف بالتلقين لغيرك ، وتردده عن نفسك ، اللهم الا أن يكون دافع العصبية هو الذى دعاه الى هذا فأبو حاتم بصرى ، والكسائى امام مدرسة الكوفة فى عصره •

بعد ذلك حق لنا أن نقول : ان اللغه عادة مكتسبة ولاكتسابها يستطيع الانسان أن يتقن أكثر من لغة بحسب قوة اكتسابه وقد سبق ابن خلدون الى هذا القول بقوله : « فصل فى أن اللغة ملكة صناعية : اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة اذ هى ملكات فى اللسان

للعبارة عن المعانى ، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها »(١٢٩) .

وما كان ما سبق من اللغويين القدامى مع علمانهم ، من انهم لا يستطيعون أن ينطقوا بما يريدونه منهم مما خالف لهجتهم — الا ليثبتوا أنا أن هذه اللغة الصادرة عن هؤلاء لا يجوز العدول عنها الى غيرها ، لأنها لغة القرآن الكريم قال — تعالى — « قرآنا عربيا غير ذى عوج »(١٣٠) وهم كانوا يجعلون دراساتهم اللغوية لخدمة كتاب الله وفهم معانيه وأسراره .

السبب الثالث : المغالطة فى أسلوب تحكيم الأعراب

يقول البصريون : ان الأعراب الذين احتكم اليهم فى المناظرة بين سيبويه البصرى ، والكسائى الكوفى — لم ينطقوا بوجه النصب فى المسألة الزنبورية : أى انم يقولوا « فاذا هو اياها » ، وهذا الوجه لم يجزه سيبويه ، وانما قالوا : « القول ما قاله الكسائى » ، وانهم أمروا أن يقولوا ذلك ، وأقروا به ، يقول ابن هشام : انهم قالوا : القول قول الكسائى . ولم ينطقوا بالنصب ، ولذلك فان سيبويه قال ليحيى ابن خالد البرمكى : « مرهم أن ينطقوا بالنصب فان ألسنتهم لا تطوع به »(١٣١) .

وعلم اللغة الحديث لا يعتد بالاقرار فى مثل هذه المسائل ، بل يعتد بالنطق اللفظى ذاته ، وذلك لأن الاقرار ينظر فيه الى المعانى التى تستقر فى الاذهان والنفوس والضمائر ، وليس لعلم اللغة فى هذا مجال

---

(١٢٩) انظر مقدمة ابن خلدون /٥٢٢ .

(١٣٠) من الآية ٢٨ بسورة الزمر .

(١٣١) المغنى جـ ١/٨٨ وانظر طبقات ابن قاضى شهبة /٢٠٦ ، ٢١٠

أما النطق فإنه من عمل اللسان الذى هو آلة النطق ، وهو أهم مجـال الدراسة فى علم اللغة الحديث .

فقول الأعراب « القول قول الكسائى » لا يستشهد به ولا يصح أن يستدل به على أنهم وافقوا الكسـائى الا أن ينطقوا باللفظ والوجه الجائز الذى نص عليه الكسائى .

يقول سيبويه السابق لا نوافقه عليه فان يحيى بن خالد لو أمر الأعراب أن ينطقـوا بالجيم لمـا صعب عليهم نطقـه لأن القوانين الصوتية لا تأباه ، وهو من السهولة بمكان .

ويقال ان الأمين أمر أعرابيا أن يقول بقول الكسائى ، فاعتذر بان لسانه لا يسبق الا الى الصواب فأمر أن يقول شخص : قال سيبويه كذا وقال الكسائى كذا فما الصواب ؟ فيقول العربى : الصواب ما قال الكسائى(١٣٢) هكـذا يتهم البصريون الكسـائى ومن قضى فى تلك المناظرة بالمغالطة وعدم النزاهة فى التحكيم ، ولكن قد يكون ذلك منهم تعصبا وتحاملا على الكسائى لقربه من السلطان والأمراء ونيله الحظوة عندهم .

السبب الرابع : رشـوة الأعراب

يتهم جمهرة كبيرة من نحاة البصرة الكسائى بأنه أعطى الأعراب رشـوة أو جعل لهم جعلا مقـابل تأييده بمـا يوافق رأيه ومذهبه فى المسائل التى تجرى بينه وبين سيبويه البصرى فى المناظرة .

قال الزبيدى(١٣٣) : « لمـا ورد سيبويه العراق شق أمره على

---

(١٣٢) راجع وفيات الأعيان ج ٣/١٣٤ .

(١٣٣) طبقات الزبيدى /٦٨ .

الكسائى ، فأتى جعفر بن يحيى بن برمك والفضل بن يحيى بن برمك وقال : أنا وليكما وصاحبكما ، وهذا الرجل انما قدم ليذهب محلى قالا: فاحتل لنفسك فانا سنجمع بينكما .. »•

فقد يؤخذ احتيال الكسائى الذى أمراه به هو اعطاء الأعراب رشوة يقول ابن هشام : « ويقال ان العرب قد ارشوا على ذلك»(١٣٤)

ويرد الخطيب البغدادى على البصريين تهمة الرشوة فيقول(١٣٥) « فقال بعض الجهال : ان الكسائى واطأ الأعراب من الليل حتى تكلموا بالذى أراده وهذا قول لا يعرج عليه ، لأن مثل هذا لا يخفى على الخليفة والوزير وأهل بغداد أجمعين » •

ويردها كذلك أستاذنا الاسكندرى فيقول(١٣٦) : « وما يروى فى هذه الحكاية غير هذا فمن زيادة متعصبى البصريين ، وليس فى العلم كبير » •

ويعارض الدكتور / على النجدى ناصف رأى الخطيب والاسكندرى ويرد عليهما فيقول : (١٣٧) : « ونلاحظ أن كلا العالمين الجليلين يغلب على رده العنف والمبالغة ولا أرى لشىء منهما داعيا ولا مسوغا فالذين ردوا التهمة جمهرة كبيرة وليسوا من النحويين وحدهم ، ولكن من المؤرخين كذلك ، ولم أر منهم من ينكرها أو يستبعد وقوعها ، مما يوحى على الأقل بالتوقف فيها والتسليم بامكان حدوثها .. ولست أدرى كيف يكون علم الخليفة والوزير رأهل بغداد أجمعين — أمرا حتميا فى رأى

---

(١٣٤) المغنى لابن هشام ج ١/٨٨ •
(١٣٥) تاريخ بغداد ج ١٢/١٠٥ •
(١٣٦) تاريخ آداب اللغة العربية /١٠٣ •
(١٣٧) سيبويه امام النحاة /١١٠ •

الخطيب ، مع أنه ذكر قبل هذه العبارة أن الاتفاق أو المواطأة — كما يقول إذا دبرت بليل •

هل كان للخليفة والوزير وأهل بغداد عيون وأرصاد يبثونهم حول العلماء ومريديهم من حيث لا يشعرون » •

وقد يكون رد الخطيب السابق تعصبا لأهل بلده بغداد حتى يدفع عنهم تلك التهمة ؛ وإذا كان للخطيب عذر أو شفاعة فى هذا فماذا عسى أن يكون لأستاذنا الاسكندرى ، وكيف هان عليه أن يرمى جمهرة من نحاة البصرة بالتعصب ، ولم يهن عليه أن يرمى بضعة أشخاص من الكوفيين حاكم التعصب لشيخ الكوفيين أن يقوموا برشوة الأعراب حتى يدلون لصاحبهم الغلب والفوز على سيبويه البصرى الشاب المسكين(١٣٨) •

هذا وانى لأستبعد أن يقوم الكسائى برشوة هؤلاء الأعراب لأن منزلته العلمية لا تسيغ له أن ينزل الى هذا العمل ، ولكن لا يبعد أن يقوم بمثل هذا بعض أنصاره ومريديه •

وأخيرا نقول انه لو حدث هذا فعلا بأن الأعراب قد غايروا فى طريقه نطقهم وما اعتادوا عليه فى حديثهم مقابل الربح المادى فالاحتكام اليهم — حينئذ — يكون باطلا ، ولا يجوز أن يحتج بنطقهم لعدم نزاهتهم واتباعهم هولهم فى النطق ، وعلم اللغة الحديث يؤيد ما نقول به قرهدا لأنه يشترط الموضوعية وعدم الميل الذاتى والكسب المادى فى البحث •

---

(١٣٨) سيبويه امام النحاة /١١٢ •

السبب الخامس :مكانة الكسائى عند الرشيد

يقول البصريون ان الأعراب الذين احتكم اليهم فى تلك المناظرة قد علموا منزلة الكسائى ووزرائه ، تلك المنزلة والحظوة عند الرشيد هى التى رفعت من مقامه ، وفضلت فى المناظرات التى عقدت بيته وبين غيره من العلماء كسيبويه فى تلك المناظرة ، وتدخلت فى اغتصاب الفوز له فى أكثر المسائل التى طرحت على بساط البحث بينه وبين مناظريه .

والكسائى كثيرا ما كان يشير بتحكيم الأعراب الذين نزلوا بالقرب من بغداد فى المسائل التى يختلف فيها معمناظريه ، وكان هؤلاء يعلمون مدى صلته بالخليفة والسلطان فيقولون بقوله أو يلقنهم ما يريد(١٣٩)

ومنزلة الكسائى هذه يدل عليها قول يحيى بن خالد البرمكى حين طلب منه سيبويه أن يجمع بينه وبين الكسائى ، فعزم يحيى عليه ألا يفعل قائلا له : « انه شيخ مدينة السلام وقارئها ومؤدب ولد أمير المؤمنين ، وكل من فى المصر له ومعه »(١٤٠) .

وقال أبو الطيب اللغوى فيما يروى ياقوت : « لولا أن الكسائى دنا من الخلفاء ، فرفعوا من ذكره لم يكن شيئا ، وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل الا حكايات لأعراب مطروحة ، لأنه كان يلقنهم ما يريد »(١٤١)

تلك المنزلة جعلت الكسائى كأنه حلقة الاتصال بين نحاة الكوفة — وأكثرهم تلاميذه — وبين دواوين الخلفاء والوزراء والأمراء .

وان علم النفس اللغوى لا ينكر أن يميل هؤلاء الأعراب فى التحكيم الى ما يراه الكسائى ولا ينكر أن يغايروا من طريقة نطقهم لعلمهم

---

(١٣٩) مدرسة الكوفة /١٠١ .

(١٤٠) طبقات الزبيدى /٦٩ ومعجم الأدباء ١١٩/١٩ .

(١٤١) معجم الأدباء ٢٩٨/٢ ورواية اللغة /١٩٩ .

بمنزلته عند الخلفاء والأمراء ، بناء على هـذا فلا يجوز الاستشـهاد والاحتجاج بنطقهم حينئذ لاتباعهم هواهم ومخالفتهم ما اعتادوا عليه من نطق .

السبب السادس : الخصومة والتعصب بين المدرسـتين

يتهم رجال البصرة علمـاء الـكوفة بالتعصب والميـل لشـيخهم الكسائى كما يتهم علماء الكوفة البصريين بشـدة التعصب والغمط من آراء الآخرين وقد ظهر هذا فى أقوال الفريقين وردودهما على بعض من ذلك قول الأصمعى البصرى : « خرجت الى بغداد وما فيها أحد يحسن شيئا من العلم »(١٤٢) يقصد رجال الكوفة الموجودين فى بغداد .

ويفخر البصريون على الكوفيين بقولهم : « نحن نأخذ اللغة عن حرشة الضباب وأكلة اليرابيع ، وأنتم تأخذونها عن أكلة الشوارىز وباعة الكواميخ »(١٤٣) الى غير ذلك من أقوال سبقت فى البحث — أيضا — تدل على الخصومة والتعصب بينهما والتنـافس بين المصرين كانت له عدة عوامل منها : الاختلاف فى المذهب فالكوفة علوية ، والبصرة عثمانية، ومن ناحية الجنس ، فالكوفه أكثر أهلها من اليمن ، وأكثر أهل البصرة من المضريين .

ومن الناحية العلمية : فالكوفه أصـحاب فقه وحديث وقراءات ، وأهل علوم وفلسفات ، لأنهم أكثر اختلاطا بالأجانب(١٤٤) .

---

(١٤٢) انظر رواية اللغة /٢٠٧ .

(١٤٣) من اللغـة : حرشـة : أى أكلة ، وأكلة اليرابيع أى البدو الخلص ، والشوارىز جمع شيراز وهو اللبن الرائب المصفى ، والكواميخ جمع كامخ وهو مخلل يشهى الطعام . وانظر معجم الأدباء ٢/٢٠٥ ورواية اللغة /١٩٨ .

(١٤٤) سيبويه امام النحاة /٦٦ .

هذه العوامل أحكمت أسباب التنافس بين المصرين وكان من نتائج هذا التنافس أنهم كانوا يتنظرون فى مجالس الخلفاء ، وكان الخلفاء يستمتعون بهذا النوع من المناظرات ، وربما ظاهروا فريقـــا على فريق لأسباب تدعوهم الى ذلك •

وقد اشتد ذلك التنافس — فيما أرى — فى عهد سيبويه والكسائى بسبب تلك المناظرة التى وقعت بينهما •

هذه الخصومة وهذا التنافر بين المدرستين لم يكن الأعراب على جهالة بها بل كانوا يدركونها تماما ، لاقامتهم بين ظهرانيهم فى الحضر ، ومعرفتهم بأحوال المصرين لا تعيب عنهم ، ممـــا جعل الأعراب يميلون الى الوطن بما يوافق رأى الكسائى الكوفى ، مؤدب الأمين والمـــأمون : ولدى خليفة المسلمين هارون الرشيد وأذا حدث هذا فعلا فان علم اللغة الحديث لا يجيز الاحتجاج بمثل هؤلاء فيكون تحكيمهم فى تلك المناظرة باطلا ، ويكون البصريون قد توصلوا الى ما قرره علم اللغة الحديث فى مثل هذه الأمور •

وأقول ان أثر هـــذه الخصـــومة لم يقتصر فى ميل هؤلاء الأعراب للكســـائى فقط بل ظهرت آثارها فى تخـــريج تلك المســـألة الزنبورية فالبصريون يتعصبون لرأى سيبويه ويرون أنه هو الصواب ، وساقوا الأدلة والآراء وردوا قول الكوفيين وحججهم ، ومن أثبت منهم صحة رواية وجه النصب يقول : انه من الشاذ الذى لا يقاس عليه •

أما الكوفيون فيرون صحة ما ذهب اليهم شيخهم الكسائى لصحة سماعه عن العرب ولورود وجـــه له فى التخريج ويردون على البصريين فى ذلك بأدلة قد بسطها النحاة وأطالوا فيها وتشعبت الآراء فى كتب

التراث النحوى(١٤٥) .

ونحن لو أحسنا الظن بالاعراب ونفينا عنهم المؤامرة وقلنا : انهم نطقوا بالنصب لما كان فى هذا ما يشين سيبويه ، لأنه يقعد للفصحى الأدبية أما علماء الكوفة فلم يكن لديهم ما يؤهلهم الى القياس النحوى وضوابطه فقبلوا كل مسموع وتهاسوا عليه .

بعد عرض تلك الأسباب التى ذكر البصريون أنها تجعل تحكيم الأعراب فى هذه المناظرة باطلا وغير مقبول نقول :

اذا ثبت ان هؤلاء الاعراب الذين طلبوا التحكيم كانوا من قبائل مختلفة وبيئات متعددة ، فانه من الطبعى أن يختلفوا فى نطقهم المثال المذكور فيقول بعضهم « فاذا هو هى » وهم الأغلب من الأعراب الذين لم تتأثر ألسنتهم بالحضر وبعضهم يقول : « فاذا هو اياها » وهم من الاعراب الذين تأثروا بالمدينة وبالحضارة كما سبق ، وحينئذ لا داعى لاتهام الكسائى بأى تهمة مما سبق .

والنطق الأول هو الذى يعتد به سيبويه وجمهور البصريين ، لأنهم يقعدون القواعد للغة الأدبية التى نزل بها القرآن الكريم ، ولا يضع القواعد العامة المطردة للهجات المحلية المتنوعة المختلفة التى لا يمكن أن تحدها جميعا قاعدة فى اطار واحد .

فسيبويه يمثل منهج البصريين فى تلك المناظرة وهو وضعهم القاعدة على نطق الأعراب الفصحاء من سكان البادية ، أما الكسائى ومن

---

(١٤٥) انظر المغنى لابن هشام ٨١/١ وما بعدها وحاشية الدسوقى عليه ٩٧/١ وما بعدها والانصاف ٧٠٤/٢ وما بعدها والفوائد الضيائية ١٣٨/٢ ، والأشباه والنظائر ٨٦/٣ .

تبعه من الكوفيين فانهم يعتدون باللهجات ويقعـدون القواعد ولو على مثال واحد بل ولو كان مثالا شاذا ، وذلك راجع الى اشتغالهم بالقراءات القرآنية وتبحرهم فى الروايات اللغوية والسـماع عن الأعراب يقول الدكتور / مهدى المخزومى : « والكوفيون على حق فى اعتدادهم بالمثال الواحد لأن ما كان فى نظر البصريين شاذا خارجا على الأصول انما يمثل لهجة بعينها ، ينبغى أن يحسب حسابها ، فليس من الطبيعى أن يسمع أعرابى ينتمى الى بيئة لغوية خاصـة ، يقول شـيئا ليس موجودا فى اللهجة التى يمثلها ، لأن اللهجة التى يتحدث بها ويعبر بها عما فى نفسه عادة لغوية كان قد شب عليها وتعودها ، ومن الصعب التصديق بالخروج عليها ، والا كان هدفا لنقد أبناء قومه فالمثال الواحد الذى يسمعه النحوى من أعرابى أو أعرابية ، ينبغى أن ينظر اليه على أنه يمثل لهجة لغوية تحتل مكانها بين البيئات اللغوية المختلفة التى احتوتهـا البيئة العربية الواسعة ، فاهدارها اهدار لهذه البيئة ومضـيعة لجانب لغوى لا تتم الدراسة الا بالاحاطة به »(١٤٦) .

ونحن نرى دقة المنهج البصرى الذى يبنى القواعد العامة المطردة على الأمثلة الكثيرة التى ينطق بها أكثر وأغلب أهل البادية مما سـلمت سلائقهم ولم تتأثر بيئاتهم بالحضر أو العجم بالاختلاط مثلها ، لان الشأن اذا بنيت القواعد على الأمثلة الشاذة أن تضطرب وتفسد .

يقول الدكتور شوقى ضيف(١٤٧) « وقد وقف الكوفيون من هذا البناء المحكم موقفـا يدل على نقض فهمهم لمـا ينبغى للقواعد العلمية من سلامة واطراد ، اذ اعتدوا بأقوال وأشعار المتحضرين من العرب ، كما اعتدوا بالأشعار والأقوال الشاذة التى سمعوها على ألسنة الفصحاء

---

(١٤٦) مدرسة الكوفة /٣٧٨ .

(١٤٧) المدارس النحوية /١٦٢ .

مما خرج على قواعد البصريين وأقيستهم ومما نعتوه بالخطأ والغلط ، ولم يكتفوا بذلك فقد حاولوا أن يقيسوا عليها وقاسوا كثيرا مما أحدث اختلاطا وتشويشا فى نحوهم لما أدخلوه على القواعد الكلية العامة من قواعد فرعية قد تنقصها نقطة مع ما يؤول اليه ذلك من خلل فى القواعد وخلل فى الأذهان بحيث لا تستطيع فيهم ذلك الا بأن يعكس عليها مرارا وتكرارا لاختلاط القواعد وتضاربها ، وأحس ذلك القدماء فى وضوح فقالوا : « لو سمع الكوفيون بيتا واحدا فيه شىء مخالف للأصول جعلوه أصلا وبنوا عليه »(١٤٨) .

ونرى أنه ينبغى الفصل بين كل لهجة وأخرى واستنباط قواعدها الخاصة بها دون خلطها بسائر اللهجات ثم وضع دراسة مقارنة بين تلك اللهجات تفسر لنا الظواهر اللغوية تفسيرا علميا ، واذا صعب علينا التقعيد لكل لهجة على حدة اكثره اللغات يكتفى بوضع القواعد للغة النموذجية الأدبية التى يلتزمها الناس فى المجال الجدى من القول وفى الآثار الأدبية ويبدو أن المنهج البصرى اقرب الى وضع القواعد العامة للغة النموذجية الا أننا نعيب عليهم اهدار كثير من اللهجات فى الدراسة وخلطها دون نسبة فى كثير من الأحيان .

ونعيب على الكوفيين أنهم كانوا أشد خلطا فى دراساتهم للهجات فهم ، وان كانوا قد توسعوا فى الرواية عن مختلف قبائل العرب الا أنهم لم يفصلوا بينها ، ودرسوها على أنها واحدة وقعدوا القواعد لكل ظاهرة لغوية يسمعونها مما جعلهم أشد اضطرابا فى وضع القواعد من البصريين فكثيرا ما يضعون القواعد التى تخالف القواعد العامة والأصول المقررة

---

(١٤٨) الاقتراح /٨٤ .

آثار المناظرة بين سيبويه والكسائى فى النحو العربى

كثرت آثارها وتنوعت فبعض تلك الآثار ايجابية وبعضها سلبية لا نحمد فى الدرس النحوى الحديث .

الآثار الايجابية

أولا : أنها أذكت روح البحث وقوت الهمم فى البحث والتنقيب والتمحيص عن المسائل والآراء والحجج لتأييد فريق على فريق آخر ، فكل منهما يريد أن يقوى رأيه وما ذهب اليه بالحجة والبرهان حتى صار لكل بلد مذهبا خاصا ومنهجا معينا له خصائصه ومميزاته ؛ فكانت تلك المناظرة بمثابة العامل المساعد فى اظهار خصائص ومميزات كل فريق من النحاة .

ثانيا : أن هذه المناظرة قد أخذت اهتماما خاصا من النحاة فدرسوها فى أغلب بهم ووتناولوها بالدرس والتمحيص ، بل تناولها غير النحاة كذلك ، فكان نتيجة ذلك دراسة شاملة لها فى كثير من كتب التراث اللغوى والتاريخى ، تساعد الباحث على كشف ما يوجد فى تاريخها من غموض أو لبس ، حتى كادت الدراسة حولها جديرة بكتاب خاص يجمع ما تفرق فى بطون التراث اللغوى وغيره .

ثالثا : أن هذه المناظرة ، وان أخذت مظهر الخصومة — أحيانا — الا أن حصادها فى النهاية هو اظهار رأى كل فريق وأسانيده وحجته وبقاء الأصلح من هذه الآراء اما بالاقتناع بالوجه الصحيح الذى يبدو من خلال المناقشة أو بالاحتكام الى الأعراب(١٤٩) .

---

(١٤٩) رواية اللغة /٢٠٤ .

الآثار السلبية

أولى هذه الآثار وأشهرها موت امام النحاة سيبويه الذى حصر وأفحم من جراء هزيمته أمام الكسائى فى تلك المناظرة ، وكيف لا يحصر وقد ذهب لينال المجد والشرف فى قصور الخلفاء حيث العيش الرغد والحياة الناعمة الهادية ، وهو الشاب المتطلع الى الظهور ونيل الأعطيات والهدايا من الخليفة أو وزير والأمير .

ويعارض بعض الدارسين المحدثين هذا الأثر السابق فيقول : « ويبالغ رواة المناظرة ، فيقولون : ان سيبويه حصر وأفحم ، وفى رأينا أنه لم يفحم ولم يحصر ، لأنه كان لا يعتد بما قد يفد على ألسنة هؤلاء العرب المتحضرين مما يخالف استخدام الفصحاء ، ويشذ على القياس المبنى على استعمالهم ، وما يدور فى ألسنتهم »(١٥٠) .

وأرى ان الاخفاق الذى أصاب سيبويه فى رحلته من البصرة الى بغداد مع ما تحمله من مشقه السفر وضيق العيش — لخليق أن يجعل نفسه يصاب بالسأم والضيق النفسى والتعب الجسمانى مما يؤدى الى مرضه وازدياد همه وغمه ، والهم لا شك داء خطير وفتكه بالأصحاء معلوم ، وقد أصاب سيبويه منه كثير فاخفاقه ببغداد بدد أمله هباء ورد طموحه ردا قاسيا ، فليس ببعيد أن يورثه سقما يكون حتفه فيه(١٥١) .

فوق هذا فان هذا قد اشتهر فى كثير من المراجع التى ذكرت تلك المناظرة فلا داعى لمعارضته ، لعدم معارضة العقل والطب فى امكان حدوث مثله ، يؤيد هذا فان سيبويه لم يعش بعد المناظرة طويلا ،

---

(١٥٠) المدارس النحوية /١٧٤ .
(١٥١) سيبويه امام النحاة /١١٨ .

ولم يعرف بعدها من تاريخه حيثه ـ شيئا ـ مما يدل على عمق اثر هذه المناظرة عليه .

وهو ان لم ينهزم فى تلك المناظرة فى الحقيقة الا أنه قد انهزم ظاهرا أمام القوم وجمهور الحاضرين ، وحسب ذلك اخفاق بسببه لا تكون له المكانة عند الخليفة ويبقى خصمه فى مكانه متربعا فرحا بنشوة النصر عليه ، ويرجع سيبويه خاسر الدنيا التى كان يؤملها .

وثانى هذه الآثار : اذكاء روح التعصب بين البلدين واتهام بعضهم بعضا بما لا يليق ، ورمى بعضهم بعضا بالجهل وعدم المعرفة وهذه أمور تطمس الحقائق العلمية ، وتجعلنا نشك فى كثير من أقوالهم، فيلزمنا أن نتروى وأن نتمهل فى الأخذ عنهم ، وبخاصة فيما يتعلق بشخصياتهم .

خاتمة البحث

كان من نتائج هذا البحث أنه لابد من الاستفادة بنظريات ومعطيات علم اللغة الحديث ، وفروعه الخاصة فى دراساتنا النحوية ، بحيث يضع الدارس دراسته على درجة السلم التى تقف فيها الحياة اليوم ، فاذا تم له ذلك أعيد النظر فى الدراسات النحوية واللغوية فى ضوء علم اللغة الحديث فلابد من الاستفادة بما جد من أدوات الدرس اللغوى الحديث والاستفادة من تقدم العلوم فى شتى فروعها ، لا سيما علم الاجتماع اللغوى الذى يهدف الى بيان العلاقة بين اللغة والحياة الاجتماعية ويرمى الى تقدير أثر المجتمع فى مختلف الظواهر الاجتماعية وذلك لأن اللغة ظاهرة اجتماعية لا تخضع لهوى الفرد .

وكان من نتائج هذا البحث أن وقفنا على أهم سمات المنهج البصرى وأهم خصائص المنهج الذى بدت فى تلك المناظرة جلية واضحة

ووقفنا على أسباب رفض البصريين تحكيم الأعراب الذين احتكم اليهم وبينا رأينا فى كل سبب •

كما أظهر البحث موقف علم اللغة الحديث من تحكيم الأعراب فى المسائل اللغوية موضوع البحث ، وموقف علم اللغة من تلقين الأعراب وغيرهم اللغة بأن التلقين سهل ميسر كما هو مفصل بشروطه فى البحث كما انصف البحث رئيس مدرسة النحو الكوفى الامام الكسائى فى المسألة الزنبورية فى ضوء ما رآه علم اللغة الاجتماعى والجغرافى ـ انصافا علميا مؤيدا بالواقع والمنطوق وام يتحامل عليه ، كما تحامل عليه كثير من النحاة السابقين والمتأخرين وبعض المحدثين تعاطفا مع سيبويه رئيس مدرسة النحو البصرى •

لقد كان كثير من دارسى النحو كلما نظروا برأى كوفى نظروا اليه نظرة اهمال واغفال ، لا فرق بين الأساتذة المنتهين والطلاب المبتدئين، لا يميلون الا الى الرأى البصرى لأنه الأشهر عند الدارسين ، فكان حريا أن ننظر الى النحو الكوفى نظرتنا الى النحو البصرى وأن نفيد منه •

ومع انصافنا للكسائى فاننا لم نغمط حق امام المدرسة البصرية ولكن وجهنا رأيه التوجيه السليم بما يتمشى مع منهجه الذى اختطه لنفسه وهو أنه لا يقبل الاعتماد على الشواهد العربية الا اذا كانت متواترة ، وتواترها هو كثرة دورانها على الألسنة ، فاذا ما وصلت هذه الشواهد الى هذه الدرجة من التواتر صح الأخذ بها واستنباط القواعد منها ، بل لابد أن تصدر من العرب الخلص الذين لم تؤثر فيهم الحضارة واعتصموا بالبادية •

ونخلص من ذلك كله الى أن المدرسة الكوفية توسعت فى الرواية

وفى القياس توسعا جعل البصرة اصح قياسا منها ، لأنها لم تقس على الشـــواذ النادرة فى العربيـــة ، وطلبت فى قواعدها الاطراد والعموم والشمول ، كما جعلها أكثر تحريا منها للرواية عن الأعراب وأكثر تثبتا ، كما ظهـــر هـــذا واضحا جليا فى كثير من أحداث ووقائع المناظرة بين سيبويه والكسائى التى حملت جذور وأوسس المذهبين فيها .

وأخيرا أرجو أن أكون وفقت فى عرض هذه المناظرة ، وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

الدكتور / عبد الحكيم حسين عبدالرحمن العسيلى
المدرس بقسم أصول اللغة العربية
بكلية اللغة العربية بأسيوط

أهم مراجع البحث

١ ـ الابانة عن معانى القراءات لمكى بن أبى طالب القيسى تحقيق د/ عبد الفتاح اسماعيل شلبى ـ طبع دار نهضة مصر سنة ١٩٧٨م

٢ ـ أخبار النحويين البصريين لأبى سعيد السيرافى تحقيق الأستاذين: طه الزينى ومحمد عبد المنعم خفاجة ـ طبع مصطفى الحلبى الطبعة الأولى سنة ١٣٧٤هـ ٠

٣ ـ الأشباه والنظائر فى النحو للحافظ جلال الدين السيوطى طبع دار الكتب العلمية بيروت ـ الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م ٠

٤ ـ الأصوات اللغوية فى لسان العرب فى ضوء علم اللغة الحديث تأليف الدكتور /ناجح عبد الحافظ مبروك ـ الطبعة الأولى ـ دار التوفيقية سنة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م ٠

٥ ـ أصول النحو العربى فى نظر النحاة ورأى ابن مضاء وضوء علم اللغة الحديث تأليف د/ محمد عيد ـ نشر عالم الكتب ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٧٨م٠

٦ ـ الأعراب الرواة للدكتور / عبد الحميد الشلقانى طبع دائرة المعارف بمصر ١٩٧٧م ٠

٧ ـ الأعلام لخير الدين الزركلى ـ الطبعة السادسة سنة ١٩٨٤ ـ دار العلم للملايين ٠

٨ ـ الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى تحقيق لجنة باشراف محمد أبو الفضل ـ طبع الهيئة العامة بمصر سنة ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م ٠

٩ ـ انباه الرواة على أنباء النحاة للقفطى تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ طبع الهيئة العامة للكتاب ـ الطبعة الثانية سنة ١٤٠١هـ

١٠ ـ الانصاف فى مسائل الخلاف لابن الأنبارى تحقيق محيى الدين طبع دار الجيل ٠

١١ ـ بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة للسيوطى تحقيق محمد أبو الفضل ـ طبع دار الفكر ـ الطبعة الثانية سنة ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م ٠

١٢ ـ تاريخ بغداد للبغدادى ـ طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ بدون تاريخ ٠

١٣ ـ التشبيه البليغ تأليف د/ عبد العظيم ابراهيم المطعنى ـ طبع دار الرائد سنة ١٤٠٠هـ ٠

١٤ ـ حاشية الدسوقى على المغنى ـ مطبعة المشهد الحسينى سنة ١٣٨٦هـ ٠

١٥ ـ خلاصة فى أدب البحث والمناظرة تأليف الشرباصى الحسنين ـ طبع دار الزينبى الأولى سنة ١٣٧٩هـ ٠

١٦ ـ الخصائص لابن جنى تحقيق د/محمد على النجار ـ طبع دار الهدى للطباعة ـ الثانية ـ بيروت ٠

١٧ ـ دلالة الألفاظ للدكتور ابراهيم أنيس ـ نشر مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٦م ٠

١٨ ـ ديوان الفرزدق طبعة الصاوى سنة ١٩٥٤م ٠

١٩ ـ الرد على النحاة تحقيق الدكتور شوقى ضيف ـ طبع دار المعارف ـ الثانية سنة ١٩٨٢م ٠

٢٠ ـ رواية اللغة للدكتور عبد الحميد الشلقانى ـ طبع دار المعارف سنة ١٩٧١م ٠

٢١ ـ سيبويه امام النحاة تأليف د/ على النجدى ناصف نشر عالم الكتب الطبعة الثانية بالمطبعة العثمانية سنة ١٩٧٩م ٠

٢٢ ـ شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ـ طبع احياء التراث العربى ـ الطبعة الجديدة ببيروت ـ لبنان اعداد دكتور / عبد الحكيم حسين عبد الرحمن العسيلى مدرس بقسم أصول اللغة العربية جامعة الأزهر بأسيوط ٠

٢٣ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق أحمد شاكر ـ طبع دار المعارف سنة ١٩٦٦م ٠

٢٤ ـ الصاحبى فى فقه اللغة لابن فارس ـ تحقيق / السيد أحمد صقر طبع عيسى الحلبى سنة ١٩٧٧م ٠

٢٥ ـ طبقات المفسرين للداودى ـ طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الثانية ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م ٠

٢٦ ـ طبقات النحويين واللغويين للزبيدى تحقيق محمد أبو الفضل ـ طبع دار المعارف سنة ١٩٧٣م ٠

٢٧ ـ علم اللغة بين القديم والحديث تأليف د/ عبد الغفار حامد هلال ـ مطبعة الجبلاوى الطبعة الثانية سنة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م ٠

٢٨ ـ غاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجزرى تحقيق « برجشتراسر» طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م ٠

٢٩ ـ الفهرست لابن النديم ـ طبع دار المعرفة ـ بيروت ـ سنة ١٣٩٨هـ

٣٠ ـ كتاب سيبويه تحقيق / عبد السلام هارون ـ طبع الهيئة العامة سنة ١٩٧٦م ٠

٣١ ـ لسان العرب لأبن منظور ـ تحقيق عبد الله الكبير وزميليه طبع دار المعارف ٠

٣٢ ـ المدارس النحوية لشوقى ضيف طبع دار المعارف ـ الثالثة سنة ١٩٧٦م ٠

٣٣ ـ مدرسة الكوفة تأليف د/ مهدى المخزومى ـ طبع مصطفى الحلبى ط ـ الثانية سنة ١٩٥٨ ٠

٣٤ ـ مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى تحقيق محمد أبو الفضل ـ ـ طبع دار نهضة مصر سنة ١٩٧٤م ٠

٣٥ ـ المزهر للسيوطى تحقيق محمد جاد المولى وشريكيه ـ طبع دار التراث ـ الطبعة الثالثة ٠

٣٦ ـ معجم الأدباء لياقوت الحموى ـ مطبعة دار المأمون ـ الطبعة الأخيرة دون تاريخ ٠

٣٧ ـ معجم البلدان لياقوت الحموى ـ طبع دار صادر ـ بيروت ٠

٣٨ ـ معجم قبائل العرب لعمر رضا كحالة ـ طبع مؤسسة الرسالة ـ ط الخامسة سنة ١٤٠٥هـ ٠

٣٩ ـ مغنى اللبيب لابن هشام تحقيق محيى الدين عبد الحميد طبع المدنى نشر محمد على صبيح ٠

٤٠ ـ مقدمة ابن خلدون ـ طبع دار الشعب بدون تاريخ ٠

٤١ ـ من أسرار اللغة لابراهيم أنيس ـ طبع الأنجلو المصرية ـ الخامسة دون تاريخ ٠

٤٢ ـ منجد المقرئين لابن الجزرى تحقيق عبد الحى الفرماوى نشر مكتبة جمهورية مصر الطبعة الأولى سنة ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م ٠

٤٣ ـ من قضايا اللغة والنحو ـ لعلى النجدى ناصف ـ طبع نهضة مصر ـ دون تاريخ ٠

٤٤ ـ نحو بحث منهجى تأليف الدكتور / عيد محمد الطيب ـ مطبعة الأمانة سنة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م ٠

٤٥ ـ نزهة الألباء لابن الأنبارى تحقيق محمد أبو الفضل طبع دار نهضة مصر بمطبعة المدنى سنة ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٧م ٠

٤٦ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ مطبعة السعادة الطبعة الأولى سنة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٩م ٠